نظرات...

في صحائف العلّامة الإنساني

محمّد أمين شيخو (قدس الله سرّه)

للدكتور مصطفى محمود

هل ينادي تعالى رسوله: يا أيها المتغطي النائم، في آيتي: (يا أيها المدثر)، (يا أيها المزمل)؟!.

هل حقاً أن الله يحلف بالتينة والزيتونة؟!.

ما حقيقة عزرائيل؟!.

كيف سمح تعالى بزواج الأخوة والأخوات، أبناء سيدنا آدم عليه السلام؟!.

هل مصر هبة النيل، أم هبة السماء؟!.

هل كلمة (النبي الأُمي) تعني الذي لا يقرأ ولا يكتب؟!.

هل السعادة حقاً حلمٌ لا يتحقق؟!.

نظرات في صحائف العلامة الإنساني
محمد أمين شيخو
قدس الله سره

§§§§

لفضيلة العلامة الإنساني الكبير
محمد أمين شيخو
قدَّس الله سرّه

§§§§

جمعه وحققه المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

§§§§

تقديم
الدكتور مصطفى محمود

§§§§

Published by
Amin-sheikho.com

موقعنا على شبكة الإنترنت:
www.amin-sheikho.com
info@amin-sheikho.com

محتويات الكتاب

مقدمة بقلم الدكتور مصطفى محمود

من خلال مطالعاتي لكتب العلاَّمة محمَّد أمين شيخو، تبيَّن لي جمال أسلوبه الحواري في المواضيع العديدة منها والمختلفة، وتركيزه في شرحه للكلمات بإسهاب باللغة العربية، مما يساعد القارئ على فهم المعنى أكثر وأكثر.

• ففي البحث الأول من هذا الكتاب: يتعرَّض العلاَّمة محمَّد أمين شيخو لبحث فريد وعجيب لمفهوم كلمتي:

{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}، **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}**، ونحن نعلم جميعاً أن كلمة (المدثر): تعني المدثر بثيابه والمتلفف بها من مجيء الوحي إليه خوفاً منه وهيبة، وهذا المعنى يكون صحيحاً إذا جاءت الكلمة (المدسر) بالسين وليس بالثاء، وقد أتى على شرحها بأدلة لغوية وقرآنية، وأيضاً كلمة (المزمل): فلا يصح أنه ﷺ يزامل اللحاف، لذا فإن معنى كلمتي **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}**، **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}** لهما معنى بليغاً، وفهماً عالياً، ومقاماً عظيماً متناسباً وحقيقة ذلك النداء الإلَهي لسيد الخلق ﷺ.

• وينتقل العلاَّمة للبحث الثاني: (هل حقاً أن الله يحلف بالتينة والزيتونة؟!) الله تعالى يقسم بما شاء وكيف يشاء؟!!

• وفي البحث الثالث: يتعرض العلاَّمة لكلمة (عزرائيل) ويعرضها على القرآن الكريم والسنة الشريفة، فلا يجد لها أثراً، وهذا مما يخالف فكرة هذه التسمية الغريبة.

• وفي البحث الرابع: تعرض العلاَّمة لقضية دينية لافتة للنظر، وهي قضية زواج الإخوة والأخوات أبناء وبنات آدم عليه السلام، إذ كيف سمح تعالى بزواج بعضهم البعض ثم حرَّم ذلك فيما بعد؟ وهل كان ذلك الزواج مبنياً على أساس علمي وصحي؟ ومن المعروف بداهة في الطب أن زواج الأقارب واتحاد الدم يورث

الذرية أمراضاً معقدة من تشوهات خلقية وضعف في البنية الجسدية، إلى غير ذلك من الأمراض، من أجل ذلك يوصي كل الأطباء بالزواج من عائلات مختلفة، لكي لا يكون هناك تقارب في تكوين الدم.

إن زواج الإخوة والأخوات أبناء أبينا آدم عليه السلام كانت مشكلة عقيمة يصعب فهمها واستيعابها، لولا الأدلة العلمية والطبية التي أتى على شرحها وتبيانها العلاَّمة محمَّد أمين شيخو، وبذا يكون هذا البحث قد توضح وأصبح مفهوماً.

• وفي البحث الخامس: يسأل العلاَّمة محمَّد أمين شيخو بظرافة، هل مصر هبة النيل أم هبة السماء؟ ولماذا أجدبت أرض مصر سبع سنوات عجاف، وفيها النيل العظيم ومياهه الغزيرة؟!

والذي أدهشني أن وراء هذا السؤال بحثاً علمياً جدّياً وحقيقة تتجلى في قوله تعالى: **{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}**[1].

• وفي البحث السادس: يشير العلاَّمة إلى أدلة قرآنية ولغوية إلى المعنى السامي العظيم لكلمة (الأمّي).

• وفي البحث السابع: يختم العلاَّمة كتابه ببحث هل السعادة حقّاً حلم لا يتحقق؟!! وكيفية الوصول للسعادة الحقيقية.

ـ فبحوث العلاَّمة محمَّد أمين شيخو كلها جديدة وجديرة بالاهتمام، فجزاه الله خير الجزاء.

د. مصطفى محمود

[1] سورة الذاريات ـ الآية:٢٢.

عجباً لذاك النداء؟! {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}، {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}

ما أغربه، وما أعجب ما رووه؟!

أورد المفسرون آية: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}** بمعنى: (يا أيّها المدسّر) فأخطأوا المعنى وكذا: (المزَّمل).

أَذَهبت الحكمة والرحمة والرأفة والكمال والصدق منه ﷺ، فما بقي ما يُناديه به ربه جلّ وعلا سوى: «يا أيها المتغطِّي النائم»؟! هل اختفت تلك الصفات فغابت؟ فلم يبق ما يُنادى به من حوت نفسه المحامد كلها ﷺ!

يا أيها الشجاع، يا أيها البطل، يا ذا الخلق العظيم! يا أيها الحكيم، يا كامل، يا هادي! يا رحيم، ومنها الكثير، توجِّه القلوب بالتقدير والإجلال للمنادى، فتذعن النفوس إجلالاً له وتعظيماً لشأنه، فتسمع كلامه وتمشي بهداه، وتنتقل لتقدير الله العظيم، فتنال ما تناله بليلة القدر. ذلك رسول الله ﷺ العظيم يناديه ربه.

زعموا أن جبريل عليه السلام أتاه مخاطباً: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}، {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}**: يأمره بترك التزمل وهو التغطي في الليل والنهوض إلى القيام، أنه لما نزل عليه الوحي في غار حِراء أصابه الرعبُ والهلع، وقد رووا عن السيدة عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «**جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: (ما أنا بقارىء). قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ}: فرجع بها رسول ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: (زملوني زملوني... (أي: غطوني بالثياب ولفوني بها)). فزملوه**

ودثروه باللحف وثيابَه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: (لقد خشيت على نفسي). فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتُكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[2].

وروى البخاري أيضاً عن جابر بن عبد الله، أن رسول ﷺ قال:

«جاورت بحراء فلما قضيت جواري، هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني وصبوا عليَّ ماء بارداً، قال: فدثروني وصبُّوا عليَّ ماء بارداً، قال، فنزلت: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}».

وروَوْا في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}**: أن المزمل هو المتلفف: يقال: تزمل وتدثر بثوبه إذا تغطى. وزمل غيره إذا غطاه، وكل شيء لفف فقد زمل ودثر[3].

وأيضاً: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}**: أي يا أيها الذي قد تدثر بثيابه وتلفف بها من مجيء الوحي إليه خوفاً منه وهيبة.

نعم لقد غابت عنهم حقيقة ذلك الرسول العظيم، وحقيقة ذلك النداء الإلٓهي المهيب، حتى وصل بهم الأمر إلى غيابٍ عن المعنى السامي الرفيع، والمراد من كلام العظيم جلّ جلاله وبهاه!

فالحقُّ والحقَّ نقول بالإثبات والمنطق المعقول: أن لفظة الدس من التغطية، وأن (المدسِّر) بالسين لفظاً تعني المتغطي المتلفف المكمور الذي غطَّى وكمر نفسه من ذاته بذاته، لا من قبل غيره بأغطية الفرش أو الثياب، لذا فالمعنى الذي أورده المفسرون عن

---

[2] صحيح البخاري ج١ رقم الحديث /٣/.

[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج١٩.

رسول الإنسانية ﷺ أنه (مُدَّثِر) أي مغطى باللحف والثياب خطأ لا أصل له من عدَّة وجوه:

١- إذا نظرنا لهذا التفسير من حيث اللغة العربية لوجدنا أنه لا يصح على الإطلاق، ولا ينطبق على كلمة المدثر، بل يصح لو أورد تعالى الكلمة بقوله: (يا أيها المدسِّر) بالسين لا بالثاء، ولكنها أتت بالثاء: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}**: فلا تصح، لأن المدثر مأخوذة من الدثور، والدثور باللغة العربية تعني الغنى المادي أو المعنوي، لقولهم لرسول الله ﷺ: «**يا رسول الله: ذهب أهل الدثور بالأجور..**»[٤]، أي كَسبَ أهل الغنى والمال من كبار الصحابة رضوان الله عليهم، كسبوا بإنفاقهم أموالهم في سبيل الله ثواباً وأجراً عظيماً لم ينله غيرهم، ناله هؤلاء الأغنياء الشاكرون رضي الله عنهم ورضوا عنه.

٢- كلمة: (المُدَّثِرُ) اسم فاعل، أي: أنه لو صح شرحهم لكان هو ﷺ دثَّرَ نفسه بنفسه على حدِّ ادِّعائهم، فالمدثِّر هو الذي دثر نفسه ولم يدثره غيره، بل هو الذي قام بفعل التغطية لنفسه كما قصدوا، لكنهم أوردوا التفسير بأن أهل بيته ﷺ غطوه وكمروه، لكان لزاماً أن تأتي الآية بلفظ: (يا أيها المُدَّثَّر) من قبل أهله، لكنها أتت: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}**: (اسم فاعل) فشرحهم خطأ ثان، إذ أن شرح (المدسِّر): أي المتغطي بدليل الآية:

{وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}[٥] فالدُسُر: مسامير السفينة تدخل في أخشابها لتثبيتها. والدسر: هو كل شيء يكون نحو السَّمْرِ وإدخال شيء في شيء.

وكذلك بالآية: **{وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}**[٦]: ودساها مشتقة من دسَّ من الإدخال، أي دس نفسه بشهوات الدنيا الدنية والمعاصي والآثام.

---

[٤] صحيح مسلم، كتاب الزكاة. الحديث رقم /١٠٠٦/.

[٥] سورة القمر – الآية:١٣.

[٦] سورة الشمس – الآية:١٠.

ودسَّ نفسه بالفراش أي دسَّها بين اللحف والفراش. ودسَّ شيئاً في جيبه: إذا أدخله في جيبه.

فالدس هو مواراة شيء في شيء وتغطيته، بدليل قوله تعالى: {**..أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ..**}[٧]: يطمره ويكمره ويغطيه، وهي هنا تعني وأْدُ الأنثى بالجاهلية، أي: طمرها ودفنها وهي على قيد الحياة بالتراب وتغطيتها به أيضاً. فشرحهم يَصحُّ لو أتت: (يا أيها المدسِّر) بالسين، والآية خلاف تفسيرهم.

٣- الملَك سُمِّي ملكاً لأنه ملَّك نفسه بالكلية لمبدع الكائنات بالأزل عند حمل الأمانة، فالملائكة الكرام تخلَّوْا عن شهواتهم كلها وميولهم حبّاً بالله، وقبلوا بربهم وحده لا يبغون أبداً سواه، فنالوا من مبدع الجمال وخالقه صفاء ونقاء، ونوراً وجمالاً ما نالته الدنيا وفتنها، ولا تصل بكل فتنها لمثيله، لذا فهم لا يُفتنون، وللشهوات لا يبغون، فلا حُبَّ لهم إلاَّ حبُّ الله ومشاهدة خالق الجمال ومبدعه.

لذا فهم بعد السادة الأنبياء، أصفى وأنقى وأحلى وأبهى وأجمل خلق الله، والسؤال الآن:

لِمَ يخشى ويرتعب ويخاف سيد الخلق ﷺ مِن منظر سيد الملائكة جبريل عليه السلام ذاك الخوف والرعب والهلع؟! أَوَ من هذا الملَك الجميل المشتق جماله من جمال الله؟ يرتعب ويخاف!

٤- والسؤال الآن أيضاً: هل يخشى الملك أو السلطان من جندي من جنوده؟ حتماً هذا لا يكون، إذن:

كيف يقول المفسرون كافة وبالتفاسير الشهيرة أن سيد الخلق ﷺ والملائكة جنوده، يرتعب وترتعد فرائصه من ملَك جندي عنده، وأخذ الرعب منه مأخذه، ونزل جبل غار حراء مرعوباً كل المسافة

---

[٧] سورة النحل – الآية:٥٩.

إلى بيته، ولم يسكن روْعه ورعبه بل قال لأهله: «غطوني طمُّوني» باللحف وبالثياب لرعبه، مع أن كل الملائكة تصلي عليه ﷺ، ويزداد بل ويزيدهم كمالاً وغبطة وسلاماً.

والسلام تعني الأمان، و: **{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ..}**[8] عليه الصلاة والسلام، فمن أين جاؤوا بهذا التفسير الخاطئ؟!

٥- وكيف يخاف أشجع خلق الله ﷺ من ملَك واحد ولماذا، وهو الذي نُصر بالرعب مسيرة شهر كما قال الصادق الأمين، وكما وقع أن ارتعبت من مهابته ﷺ أقوى وأعظم دولة بالعالم (الدولة الرومانية البيزنطية) ففرَّت جيوشها في وقعة تبوك حينما علموا بقدومه ﷺ لقتالهم؟!

٦- كيف يقولون أن عظمته ﷺ ليست من الله العظيم بل من امرأة، أي من زوجته أمّنا خديجة عليها السلام، وهو القائل: **«ما أفلح قوم يلي أمرهم امرأة»**[9]!

يزعمون أن امرأته ثبتته وشجعته وبثَّت الثبات في قلبه وهو مرعوب وهو لم يكن مصدقاً أنه رسول الله، بل ظن بالله الظنون من أنه سيخزيه، فكان خائفاً حتى قالت له: **«كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»**.

فعلى زعمهم: الرسول لا يعلم أنه رسول تحت لوائه كافة الرسل والنبيين، وهو القائل ﷺ: **«آدم فمن دونه تحت لوائي..»**[10].

٧- هل الرجال قوامون على النساء أم العكس؟! والقوَّام الذي ينهض بزوجته للإيمان بالإرشاد والتوجيه والمعاملة الحسنة، وبإسداء

---

[8] سورة الأحزاب ـ الآية:٥٦.
[9] مسند الإمام أحمد ج٥.
[10] مسند الإمام أحمد ج١.

النصائح والتعليم، أم هي معلمته ومرشدته، وهو مرشد الخلائق كلها، أم هي التي تأخذ بيده وتحميه بتثبيته حين فزع وتَزَعْزع بزعمهم الخاطئ! لا أدري كيف قلبوا المفاهيم، وعكسوا كلام الله، وجعلوا النساء قوَّامات على الرجال!

٨- كيف يصورون أشجع خلق الله بهذا الجبن والضعف والخَور؟ مع أنه كما قال الإمام البوصيري:

ومن تكن برسول الله نصرته   إن تلقه الأُسْد في آجامها تجِمِ

وتنصره امرأة!

ليت شعري كيف استساغ المؤمنون والمثقفون معانيَ فئة من المتقدمين أن أدرجوا هذا المعنى لـ: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}** أنها تعني التغطية بقصة نزول الوحي عليه ﷺ.

ولو فرضنا أنه أراد أن يغطوه باللحف أو الثياب لقال «دسروني» (بالسين وليس بالثاء)، لأن الدسر للتغطية لا (الدث) أو الدثر. التغطية والطمر كما ذكرنا أوردها تعالى بالدس بقوله الكريم:

{..أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ..}، حيث كان العرب يدسون الموءودة بالتراب.

كذا كلمة الدسوس مشتقة من الدس، ومنها دس تلك التضليلات الإسرائيلية العاطل منها والفاسد، في طيَّات كتب التفسير والسيرة والفقه وإدخالها وطمرها فيها، لتغطية الصحيح بالباطل وطمر الحقائق. يقال دس السمَّ بالدسم. أما المزمل التي زعموا أنها بمعنى المدثر أيضاً لا تصح.

فكم أطلقت كلمة الزميل واستخدمت في الجامعات، وهي تعني الصحبة والرفقة، والزمالة صحبة الدراسة أو العمل، فلا يقول مَن

أوتيَ جوامع الكَلِم ﷺ: **(زملوني)** أي: صاحبوني بالرداء، فهل تقول عن غطائك أو ردائك، هذا صاحبي هذا زميلي؟! قول ساذج..

أخيراً: أليس القرآن الكريم مصدر اللغة العربية، وهو كتاب عربي ميسَّر للذِّكر، أوَ لم تستخدم كلمة الثراء والمدد كثيراً في حياتنا دلالة على الكثرة من الكسب والغنى؟!

فكلمة المُدَّثِرُ: لغةً: اسم الفاعل من فعل دثر. والدثر: الكثير من كل شيء، يوصف به على لفظه كالمصدر؛ ويجمع على دثور، والدُّثور: جمع دَثْرٍ، وهو المالُ الكثيرُ يقال: مال دَثْرٌ، وقيل: هو الكثير من كل شيء؛ يقال: هم أَهلُ دَثْرٍ ودُثُورٍ، ومالٌ دَثْرٌ. وأهل الدثور: الأغنياء.

فقد ورد في الحديث الشريف أنه جاء فقراء المهاجرين فقالوا: «**يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال النبي ﷺ: وما ذاك، قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق..**»[١١].

وفي دعاء رسول الله ﷺ: «**اللهم بارك لهم في مخضها ومحضها ومذقها واحبس راعيها على الدثر..**»[١٢]: أَراد بالدَّثْرِ هنا الخصْبَ والنباتَ الكثير.

ومن القواعد الأساسية التي اكتشفها العالم اللغوي الكبير **(ابن جني)**[١٣] في فقه اللغة العربية:

---

[١١] صحيح مسلم ج١، رقم الحديث /٥٩٥/.

[١٢] كنز العمال ج١٠، رقم الحديث /٣٠٣٢٥/.

[١٣] عثمان بن جني أبو الفتح كان أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف وعلمه بالصرف أقوى وأكمل من علمه بالنحو وليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المغْلقات وشرح المشكلات ما له، قال فيه المتنبي: هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس، صنَّف الخصائص في النحو وغيره وصنَّف في التصريف مختصراً سمَّاه الملوكي.

«إن كل كلمة في اللغة أساسها حرفان، وما زاد في المبنى زاد في المعنى».

وكمثال حي على ذلك: أليس من المعروف والشائع في فقه اللغة العربية أن كلمة: **(ذباب)** مشتقَّة عند كافة اللغويين من كلمتين:**(ذبَّ)** و **(آب)**.

وكلمة: **(بَعْثَرَ)** مشتقَّة من **(بَعَثَ)** و **(نَثَرَ)**.

وكلمة:**(دَحْرَجَ)** مشتقَّة من **(دَحَرَ)** و **(دَرَجَ)**.

ويُروى عن الإمام البوصيري (رحمه الله) أنه كان لديه رداء، فإذا أراد الجلوس فَرَشَهُ على الأرض وجلس عليه، وإن أصابه البرد تغطَّى به، فكان اسمه (كساطاً)، وهذه الكلمة منحوتة في اللغة من كلمتي:(كساء) و (بساط).

وعلى هذا فكلمة **(المدثر)** تتألف من كلمتين **(مُدَّ)** و**(ثِرْ)**: أي أثرِ سواك بما مُددت به. يقال: مدّ النهار مداً: انبسط ضياؤه وعمّ.

وفي التنزيل: **{..وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ..}**[١٤]. ومنها المد: السيل وكثرة الماء، والمدد: الإعانة والتقوية.

فبمَ مدَّ الله رسوله وعمّه، وبمَ أعانه وقوّاه حتى جعله ماضياً في دعوته منصبّاً على العباد لإنقاذهم بسيول من الخيرات يرفدهم؟!

وأما (ثَرَ) يُقال: ثَرَ السائل[١٥] ثروراً: غَزُرَ وكثُرَ، وثرت السحابة والعين والشاة والناقة، غزر لبنها، ومنها الثراء: الغنى، والثري: الغني.

وبكلمة: (المُدَّثِرُ): أتى المقطع الثاني بالأمر، ثِرْ أي: أَثْرِ غيرك. مُدَّهم بالثراء والغنى الذي لا فقر بعده دنيا وآخرة، فكان الصحابة

---

[١٤] سورة لقمان – الآية:٢٧.

[١٥] السائل: مفرد سوائل.

الكرام أهل الثراء سلاطين الدنيا والآخرة به ﷺ، فأي ثراء أثرى الله به رسوله، وأي عطاء أغدقه الله عليه وأمده به؟ ولمن ولِمَ هذا العطاء حتى سمَّاه تعالى بكلمة: (المُدَّثِرُ)؟

إذن، الله تعالى لم يقل كلمة (يا أيها المدسر) لتتضمن شرحهم الخاطئ، بل قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}**: فهو ﷺ الذي أمدَّه تعالى بالثراء الكوني كله، فجعله رحمةً للعالمين أجمعين، بدءاً من السادة المرسلين والنبيين العظماء، إلى المتقين والمؤمنين أجمعين، إذ خصَّه بالتنزيل لكلامه تعالى المبين بقوله الكريم: **{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}**[١٦]: المتضمن الكتب والصحف المقدَّسة كلها.

أما كلمة: (المُزَّمِّلُ): فهي لغة صيغة المبالغة لاسم الفاعل من المصدر زمل: يُقال زمل فلاناً زملاً: عادله، وأردفه وتبعه، وزمل أحداً: رفعه وحمله فهو زميل له، ومنها: زميل الكلية، أو (زمالة): وهي درجة علمية ينالها طالب الشهادة من الكلية.

هل هناك ثمَّة امرئ يتخذ غطاء نومه زميلاً له؟!

فالزمالة: الصحبة والجماعة، أو الزميل: الرفيق (الرديف) بالعمل أو السفر، وعلى هذا فالرسول ﷺ: لمن تبعه رديفاً يرفع نفسه إلى الله، فهو محمول من قبل النفس المحمدية، فيصبح في كنف صحبه الكرام فهو ﷺ له زميل وشفيع ودليل إلى الله وبالله، وهو ﷺ طلب زمالة الخلق وصحبتهم، للنهوض بهم للأنس والإنسانية، ونوال الخيرات من الرحمن الرحيم، بمعيَّته وزمالته وصحبته النفسية.

لقد وجده تعالى في لهفة على الخلق، ذا رحمة كبيرة لإخراجهم من الظلمات إلى النور. صادقاً في حبه لله، صادقاً في عطفه وحنانه على خلقه، لذا تجلى عليه تعالى التجلي الأعظم وجعله زميلاً لهم،

---

[١٦] سورة الحجر – الآية:٨٧.

وباباً له للخلق، ليسمو بهم إلى عليين، بعد إخراجهم من الظلمات إلى النور: {**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**}.

الرسول ﷺ ما حوت نفسه الشريفة الطاهرة النقية إلاَّ الله، دسر نفسه الشريفة وطاقاته وإمكانياته كلها بالله، فأغناه الله وأعطاه، فكان لنا إماماً ولنفوسنا سراجاً منيراً، نقتدي به، ونُقبل على الله بمعيته، وهو لنا نعم الإمام وخير رفيق، نستنير بالنور الإلّهي الساطع على نفسه ﷺ بسبب إقباله العالي على الله، ومن لا صلة له بهذا الرسول الكريم ﷺ ولا محبة، فليس بمستطيع مهما حاول وجهد، أن يصلي الصلاة التي أمر بها الله تعالى، فهو محروم من ذوق الإقبال على الله، أعشى البصيرة عن رؤية كمال الله، ليس بمدرك شيئاً مما يقرؤه من آيات في الصلاة.

فإن أصبحتَ صادقاً في التجائك لله، عندها تقبل بنفسك على الله وتستهديه، وتطلب منه أن يتجلى عليك بنوره، فهو ﷺ سراج منير لنفسك، يريها كمالات الله بالصلاة.

فإذا صدقت في توجهك وطلبك حقاً، فهنالك تحصل لك التقوى، وهي: الاستنارة الدائمية بنور الله، فيجمع تعالى نفسك مع نفس رسوله الكريم، وبنوره ﷺ يصل بك إلى نور الله تعالى الأصل، ويكشف لك هذا النور الإلّهي حقيقة الأشياء، فتميز خيرها من شرها، ويكون لك من الله فرقان يريك طريق الحق واضحاً نيِّراً، فتنال خيرات الدنيا والآخرة، والغنى والثراء الحقيقي الدائم، والغنى غنى القلب.

فالرسول ﷺ هو المغمور بالتجلي الإلّهي والأنوار الإلّهية الباهرة الكبرى المزدانة بالقدس، المكلل بأكاليل النور الساطع، وبهذا النور غدا بصيراً، يرى الحق من الباطل، وحقيقة الخير من الشر، بذا سلّمه المولى الرحيم من كل شائبة، فهو يغدو متسامقاً من كمال

لكمال أسمى، ومن سعادة لسعادة أكبر، متسامياً في منازل الحب الإلّهي، وسماوات شاهقة عليّة، بكل من رافقت نفسُه نفسَه السامية، فهو سادر هادر بمن معه من النبيين والصديقين والمؤمنين الصالحين، من كمال لكمال أعلى وأرقى، دائم العروج في بحور أسماء الله الحسنى، طاوياً الأكوان كلها بمن يزامله نفسياً ويصاحبه قلبياً، منهمراً هاطلاً، مشعاً للسلام والأمان والمحبة العلية، والعطف والحنان والأنوار الزكية على الكائنات، من معين الحب والود الإلّهي الصافي، وهو بذا ينبوع الخيرات لنا، مغدقٌ جنات ربه العلي الأعلى الوهاب، على الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء الذين شهدوا الحق بنوره الموصل لنور الإلّه العظيم والصالحين للعطاء الإلّهي من المؤمنين، جلّ ما حظي لنا به، فوق الخلائق أجمعين، فأكبر به وأعظم، تنل ما لا تناله العوالم كلها.

لذا ناداه رب العزة بـ: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}**: يا من مُدّ بعطاءاتنا وخيراتنا وفضلنا والعلوم الكبرى من لَدُنَّا ورأيت أن الخلائق لم تنل ما نلته، ولم تحظ بما حظيت به ومن حبّك للخلق، وعظيم عطفك عليهم أحببت لهم نوال ما نلته، استجيب طلبك فأَثْرِهم بما أمددتك به من غناك، كي يسعدوا، فتسعد بسعادتهم لعظيم ما ينالون بواسطتك وبك: **{قُمْ فَأَنْذِرْ}**: انهض لتحقيق مطلبك الإنساني السامي النبيل للإنسانية إلى النور، فقد منحتك الكتاب والنور، لتُخرج عبادي من الظلمات إلى النور.

حلّت عظمة الله شهوداً على رسوله، معدن كل فضل، وأصل الخيرات الكريم الوهاب جلَّ تعالى بهاه وعظم سناه، وهو ﷺ المرشد إلى التوجه للذات العلية فبه ﷺ ننال من أزكى صلاة. صلاة إشراقية زاهية، طيبة متسامقة دائمية، فيها الرفاه وأعلى حياة، وأشهى الملذات المتسامية، وبه السلامة من شر الأشرار ومكر الفجار والظُلاَّم وأولاد الحرام.

و: **{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ}**: يا من أحببت أن تكون زميلاً لعبادي، تخرجهم من الظلمات إلى النور تصاحبهم لتسمو بهم بالصلاة إليَّ فأنت إمام الأئمة الراشدين وأنت بزمالتك لهم تخرجهم من الجاهلية إلى الصدارة في العالمين دنيا وآخرة لأنك بصدقك معي وإقبالك عليَّ أضحيت بما حظيت مني نوراً لهم، سراجاً منيراً لقلوبهم، فيغدون من أهل البصيرة، للحق مشاهدين وبشهادتهم قائمين، بنورك يرون ما في المعاصي والمخالفات والآثام من شرور فيجتنبوها لأنه ما من أحد يريد الشر لنفسه لكنه البعد عن الله ورسوله ﷺ، يجعل القلوب عمياء، لا تدري خيرها من شرها، وتستعجل بالشر استعجالها بالخير فمتى قدَّروك وعظَّموك التفَتَتْ قلوبهم إليك، فكنتَ لهم زميلاً كما طلبتَ وأحببت وبهذه الصحبة والرفقة (الشفاعة النفسية) تستنير نفوسهم بنورك الموصل لنوري فيميزون الخير ويفعلوه، والشر فيجتنبوه وبعد الموت تَبيَضُّ وجوههم بما قدموا من خيرات فيكسبون بها الجنات وكله بصحيفتك، يا مَن أحببت زمالتك لهم أي شفاعة نفسك الطاهرة المنيرة لقلوبهم، وأن تكون سراجاً منيراً، يرون بنورك جناتي وأسمائي الحسنى العلية يا رحيماً بعبادي ورؤوفاً بهم يا أيها المزمل بهم إليَّ باستشفاعهم بنفسك الطاهرة الزكية.

بصحبة الرسول ﷺ القلبية تنقلب المتاعب والمصاعب سعادات ونعيماً لا تضاهيه لذة دنيوية، والأمراض، ملذات وشفاءات قلبية، والأكوان المادية، تجليات وكشوفات إبداعية، طاب للمصلي عليه ثراه، وعَظُم نعيمه وهناه، وفي جنات الخلود ربه أبقاه، وبالحق واليقين خُطاه، وسلِم من الشقاء والحرمان، وبسماوات الإشراقات والحب دوماً مرتقاه، والبخيل البخيل على نفسه وذويه من لا يؤمن به ﷺ وبربه جل بهاه، ويأبق عنه لسواه، ذاك عن طريق السعادة تاه.

ألا فاصدق وآمن بالله الغني المغني، ترَ الحقائق وتسمع من رسول الله، وتحظى عليه بالصلاة، فيغمرك الله بصلاته العظمى ونعمته الكبرى به تكن معه في عليين، فتنال ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأشرف وأطهر وأغنى الناس من صلى عليه ﷺ.

هذا هو رسول الله ﷺ، وَصَلَ الله المقبلين عليه تعالى، الذين آمنوا بلا إلَه إلاَّ الله حقاً وصلهم به تعالى لجنابه العالي الرفيع فأضحوا بزمالة من حاز من كنز موجد الوجود جلَّ جماله وجلاله، أكبر وأعظم قسط، فوق الكائنات حين سما وتسامى إقبالاً شاهقاً متصاعداً ونوالاً مطرداً وأحاط ببحور النعيم والغبطة الأبدية وشاهد غيره من الخلائق كم حرمت نفسها من الكنوز القدسية الدائمية بإعراضها، فبالرحمة العظمى، والنِعم الكبرى التي كسبها، أحب هذا النوال المذهل المغدق المونق لكافة الخلائق، زميلاً وشافعاً ومغنياً لهم عمَّا سوى الله.

أفيقال عنه جبّن وخاف وتزمَّل وتدثّر (بمعنى تدسَّر) من خوفه باللحاف؟!

لقد أحبَّه الله لعطفه وحنانه ﷺ على كافة خلقه، وازداد حب الله له لنيته الخيّرة العليَّة لعباده، وحَمده على رحمته بهم، فبعظيم صدقه مع ربه العلي الأعلى الوهاب ﷺ، وعطفه على عباد الله، نال ما نال، وبذا اشتهى للخلق أسمى المشتهيات: القرب من الله، والتمتع بمشاهدة ذاك النعيم المقيم العالي الأسمى، وحقق الله له مشكور طلبه، فنقل طالبي التقوى إليه تعالى، فهو سراجهم المنير أبداً وسرمداً بزمالته لهم، أينما كانوا ومتى كانوا في أي بقعة وصقع

مصداق قوله تعالى للمؤمنين: {**..أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً..**}[١٧]: فيجمعكم به بالصلاة.

فإليه تعالى، من أعظم مثوى؛ فيه نُكرم ونُغنى بأسمى وأعلى وأغلى وأشهى وأسنى، مما نحلم ونتصور، ونظن ونبغي، ونحن به عليه الصلاة والسلام الأعلون، إن كنا حقاً بالله مؤمنين.

فمن غدا في جناب الله الكريم من جنابه العالي العظيم، ففي الجنان حلّ، وفي مأمن من غدرات الزمان وأهله استحل. فهو في سلامة دنيوية وأخروية، فلا سوء يعترضه أو يصيبه، ولا نيران تحرقه، ولا قيام الساعة الكبرى تناله بأهوالها، بل بالسعادة الكبرى والنعيم الأسمى، ولا سلطان لعدوٍ عليه، بل الكل له مسخرون؛ حشم وخدم. فهو به ﷺ في أمن وطمأنينة وسلام، كيف لا وشديد القوى سلّمه برسوله وأغناه فهو تعالى وليُّه ومولاه، إذ آمن به تعالى بحبه للحق ومطلق إرادته، وأحب صحبته فأضافه، وسلّمه العظيم وأناله، والله دوماً وليه، فمن دونه يستطيع أذاه:

{**اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ..**}[١٨]. هذا عين ما حدث لصحبه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين فكيف زعموا أنه ﷺ رجف وخاف والتحف باللحافْ، وقد رجفت لهيبته صناديد كسرى وقياصرة الروم؟!!

فهو ﷺ الرجل العملي الواقعي الذي قاد البشرية إلى الإنسانية والمودة، وأسعَدَ بني الإنسان ورفع شأنهم، إذ كان العرب تحت الذل والهوان، أذلاء للفرس عبدة النيران، والروم الطغاة القساة، نقلهم بقوله العالي، قول الله العظيم، إلى الشرف والعز والمجد والسؤدد، وبنى لهم بناءً استمرارياً، فبزمالته لهم واستشفاعهم النفسي به ﷺ

---

[١٧] سورة البقرة – الآية:١٤٨.
[١٨] سورة البقرة – الآية:٢٥٧.

جعل منهم هداة البشرية، وساسة الدنيا، وأبطالاً لم تشهد البشرية لهم مثيلاً.

محمد نوره الهادي من الظلم   محمد خير من يمشي على قدم

فأكبر به من أخٍ كبير بالإنسانية، ومنارة للهداية والنعيم المقيم، جاء بالوقاية فاستغنى وأغنى الناس، بالحلال عن الحرام، فعاشوا في ظله بحب وتفان للإنسانية وفي وئام، أغناهم بالعفاف الجميل عن الطمع والشر.

أوصلهم إلى منبع الوجود (الله) فضمن لهم مستقبل ما بعد الانتقال لجنات الخلود فهل بعد هذا نصدق أنه جبّن وخاف والتحف بالفراش والثياب وهو القائل: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»[19]؟!

ألم يهرب جيش الروم منه بغزوة تبوك، هلعاً ورعباً من هيبته؟

حقاً: أصبح بربّه بشراً لا كغيره من البشر، وإنساناً سامياً فوق كل مخلوق وإنسان، والطريق سالكة ممهدة لكل راغب، والسبيل ميسرة لكل طالبٍ صادق، وفضل الله تعالى واسع عميم، يؤتي كلاً بحسب سعيه، فهو ذو الفضل العظيم، والمسألة كلها بالصدق: {**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**}: له ﷺ، حيث جنة المأوى ﷺ مأواه، يأوي إليها كل محب لله، فيسلم من حب الدنيا وشرورها ومخازيها وآلامها، ومن الخسارة الأخروية حيث الهبوط للنيران الجهنمية.

أوَليست الصلاة على النبي إلاّ صلة نفوسنا بتلك النفس الزكية الطاهرة، لتنقلها إلى الحضرة القدسية؟

وهل يمكن لنفس من الأنفس أن تصلي على رسول الله ﷺ حقيقة الصلاة (الموصلة بالنفوس إلى الله)، إذا لم تكن مستقيمة على أوامر

---

[19] صحيح البخاري-ج٢ رقم الحديث: /١٢٠/.

الله إن لم تكن مُحِبة له ﷺ ومعظِّمة وموقِّرة له؟! فتتجه إليه ﷺ، وبزمالته وصحبته ونوره، تصل إلى الله، والله المعطي بكل ثراء، وهو ﷺ القاسم، وهو ﷺ القائل: «**..الله المُعطي وأنا القاسم..**»[٢٠].

وهل تحب أو تهوى النفسُ الجبانَ الرعديدَ، كما زعموا من تزمَّل وتدسّر باللحاف؟! وهل المحبة يا ترى ألفاظ تُقال، وأوصاف توصف، وادعاء يُدَّعى، أم أنها أذواق يتذوقها المحب المعظم له ﷺ؟! وأحوال ومشاهدات تخالط النفس وتلازمها، فما يستطيع المؤمن المحب المشُوق انفكاكاً عنه ﷺ، ولا تحوُّلاً عن أنواره وسمُوِّه لما يمدُّه الله بواسطته من غِناء وثراء، بل إن نفسه لتسمو وتتسامى فتعرج بزمالته النفسية ﷺ في معارج القدس والطُّهر والكمال، إلى المولى الكريم، لتعرج محفوفةً بالنعيم المقيم من حضرة الله العظيم، ومن ذاق هذه الأحوال، وشاهد تلك المشاهدات، عرف عظيم شأنها ورفيع قيمتها، وما يعرف حقيقة هذا القول، إلاَّ من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

{..فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٢١]: أي قدَّروه ﷺ عن شهود، لا الذين وصموه بصفات تترفع عنها النساء، حتى أوَّلوا في زعمهم أن امرأة (سيدتنا خديجة) هي التي ثبتته، فجعلوه تحت النساء، وهو أشجع خلق الله، وسيد العالمين قاطبة، والملائكة جنوده وخدمه يصلُّون عليه، فهل يخشى السلطانُ من خادمه؟!

{ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٢٢].

---

[٢٠] صحيح البخاري ج٢، الحديث رقم /٢٩٤٨/.

[٢١] سورة الأعراف – الآية:١٥٧.

[٢٢] سورة الروم – الآية:٢٨.

عودٌ على بدء: أخطأ المفسرون جمعاً

إذ فسروا: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}** بمعنى: (يا أيها المدَّسّر).

حيث تميَّز الأغنياء (أهل الدثور): بألبستهم الفاخرة التي كانت تغطي أجسامهم، فاختلط الأمر على العامة من الناس ظنوا أهل الدثور أي أصحاب الأموال بمعنى أهل الثياب المكتظة ذات الأثمان الباهظة. وضاع المفهوم عندهم بين (دثر ودسر).

واغتنمها أعداء الدين ليدسُّوا قصصاً وتُرَّهات عند تأويل الآية:

{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}: لتحويل الناس عن ذلك النداء العظيم من الله تعالى لرسوله الكريم، وابتغاء وضع نقاط ضعف في أشرف سيرة على مر الدهور، فحوَّلوا الناس عن عظمة رسول الله ﷺ المُنادى من ربه جل وعلا غمطاً بحق أشجع خلق الله.

وانطلت تلك الطعنة المشوّهة المدسوسة على المفسرين، واعتمدها النحويون وأهل الصرف منهم كما هي، وأدرجوها في طيات كتبهم، وصاغوا لها التصاريف، ظنّاً منهم أن دثر بمعنى كلمة (دسر) وذلك لتقارب مبناهما، واختلط الحابل بالنابل، حيث صاغوا بحق سيد العالمين ما صاغوا، ليطعنوا بحق القدوة والأسوة، ويشوّهوا الكمال المحمدي فهم: **{يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}**[٢٣].

أولاً:

هل شَكلُ الملَك الذي ملَّك نفسه لله بشع قبيح مرعب حتى أرعب رسول الله ﷺ وجعله يرتجف جزعاً أم أن الملائكة هم أجمل خلق الله؟!

---

[٢٣] سورة التوبة ـ الآية:٣٢.

ثانياً:

الملائكة تأتي المؤمنين بصورة جميلة بالبشرى، فكيف أتى سيدهم جبريل الرسول ﷺ بمناظر مريعة أرعبته؟! أليس هو حبيب الله، فلِمَ أرعبه الملَك؟!

أوَ ليست الملائكة جنود رسول الله ﷺ، وهل يخاف السلطان من جندي لديه؟ أليس الله وملائكته يصلون على النبي، فكيف يخاف منهم؟ والملائكة الكرام أَمْرُ الله تعالى لهم تثبيت المؤمنين: **{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ..}**[٢٤]: هذا التثبيت للمؤمنين فكيف بسيد المرسلين ﷺ؟ أيرعدونه ويخوفونه مخالفين لأمره تعالى، وهم الذين يفعلون ما يؤمرون؟!

والملائكة يتنزلون على الذين آمنوا بربهم ثم استقاموا قائلين لهم: **{..أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ..}**[٢٥]، فهل يصح أن يتنزل الملك على رسول الله ﷺ معادياً لا موالياً، بالإرهاب والترعيب والتخويف؟!

يصف تعالى جبريل بروح القدس، أي: التقي النقي المتشرف بالتجلي القدسي، ويصفونه مرعباً مفزعاً ولرسول الله!

وهل يلتجئ رسول الله ﷺ من خوفه لامرأة (أمنا خديجة) عليها السلام لتثبته، مع أنه ﷺ هو مرشدها وهاديها، والذي يلتجئ لامرأة هل هو رجل؟! مع أنه هو ﷺ الذي نُصر بالرعب مسيرة شهر، فكيف صوروه بهذا الجبن والخور؟! مع أن العكس هو الصحيح:

ومن تكُنْ برسُولِ اللهِ نُصـــرتُه　　إن تلقهُ الأسْدُ في آجامها تَجِم

[٢٤] سورة الأنفال – الآية:١٢.

[٢٥] سورة فصلت – الآية:٣٠-٣١.

فكيف قلبوا الحقائق، وصوروا أشجع الخلق، بأجبن الخلق، هؤلاء هل يقدِّرون رسولهم الكريم ﷺ؟! أما قال سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ: ‹كنا إذا اشتد الوغى وحمي وطيس القتال احتمينا برسول الله ﷺ، والشجاع منّا من يحاذي بصهوة حصانه بغلة رسول الله ﷺ›، فكان دوماً في مقدمة الجيش، وامتطاؤه ﷺ البغلة في مواطن الموت والوغى، وهي ليست مركوب قتال تدل على أنه لا يحسب للموت حساباً وهدفه النصر أو الشهادة، فكيف جعلوه رعديداً خوّيفاً تشجعه امرأة، يختبئ تحت اللحاف في الفُرش؟! ويقول هو بفمه الشريف ﷺ: «**ما أفلح قوم يلي أمرهم امرأة**».

وأخيراً:

قولهم بأن معنى: {**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**} أي: المتغطي، خطأ لغوي، وليس من اللغة العربية في شيء. فإن كان المعنى الذي قالوه صحيحاً، فيجب أن يكون الخطاب من الله تعالى يا أيها المدسر بالسين، وليس المدثر بالثاء، لأن المعنى اللغوي للدثر المأخوذة من الدثور فهي تعني الغنى والثراء، لقول بعض الصحابة الكرام لرسول الله ﷺ والذي سبق وأوردناه:

«**يا رسول الله: ذهب أهل الدثور بالأجور..**»[٢٦] أي أنهم أنفقوا أموالهم ونالوا الأجور من الله تعالى، فالمعنى المذكور بالتفاسير تنسفه اللغة العربية نسفاً وتظهر بطلانه لخطئه الظاهر أصلاً.

تفسيرهم يصح على يا أيها المدسر بالسين، فالمدسر الذي دسَّر نفسه أو غيره، مشتقَّة من الدس لقوله تعالى أيمسكه على هون أم يدسه بالتراب أي: يطمه ويغطيه فلو كانت الآية يا أيها المدسر لصحَّ قولهم عن التغطية فقط لا على تفسيرهم ولكن الله أوردها بالثاء: {**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**}. فصحِّحوا معلوماتكم أيها الإخوة الأحبّة.

---

[٢٦] صحيح مسلم، كتاب الزكاة-الحديث رقم /١٠٠٦/.

وتأتي أيضاً كلمة الدسوس: من إدخال وطمر المعاني المغشوشة في المعاني الصحيحة، بذا يحرِّفون الكلم عن مواضعه فيغيرون معناه.

كذا لا يمكن أن تأتي يا أيها المدسر كما أشرنا سابقاً، أي عندما يكون هو الذي طمر نفسه بالفراش، وغطى نفسه بالثياب، لأن المدسِّر اسم فاعل.

بينما بالتفسير يقولون هم الذين غطوه وطمروه، فعلى كافة الوجوه المعنى الذي أوردوه في كافة التفاسير لا يصح قطعاً كذلك تمَّ خطأ في تفسير كلمة المزمل، لأنه قال زملوني أيضاً أي دسروني غطوني اطمِروني كمروني، لأن الزميل هو الرفيق في الدراسة، والمزاملة هي الصحبة، ولا يصاحب عاقل لحافاً جامداً فيكون رفيقَ لحاف وصاحبَه، أو يقول هذا الثوب زميلي، فاللغة العربية براء من هذين التفسيرين اللذين يضربان باللغة العربية عرض الحائط.

المدثر: الغني المزدان بالثراء، وهي هنا الحائز على الغنى القلبي، الحائز للكمالات الإنسانية، المترف بعطاءات ربِّه العلية الغني الـمُغني.

{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}: اقسم عطاءاتي وجناتي المتواردة مني عليك على عبادي، فأنا المعطي وأنت القاسم، فهو ﷺ رحمة للعالمين، للهداية إلى الكنز الذي منه بحور النعيم، والغنى والثراء على العالمين، فهو ﷺ المدثر بخيرات الإلٓه التي حازها ﷺ وأحبَّها لهم.

فالله تعالى يخاطبه: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}**: أيها الغني مني وبي، زامِلهم وصاحِبهم لإثرائهم ثراء وغنىً، غنى القلب ثم غنىً دنيوياً لا فقر بعده ليغدوا بالثراء الكلي دنيا وآخرة وللأبد بالجنات رافلين، فللسعادة خلقنا الله وهذا طريقها.

بم نال ﷺ ما نال حتى أغنى العرب عن الدنيا وما فيها بما نالوا به ﷺ من ربه جل وعلا ومنح بعدها للإنسانية ما أغناهم عن الرذيلة

والانحطاط إلى السمو والعلو والسعادة الحقيقية ليكون البشر كلهم متآخين.

هذا الإنسان العظيم ﷺ بصدقه مع ربه، وتخليه عن الدنيا وأهلها وزينتها وترفها وعنده أموال أمنا خديجة، عزَف عن لهو الدنيا إلى الأنس بربه وضحى بمفاتنها كلها وهاجر إلى ربه بغار حراء فحار بما رأى من جانب ربه، فطلق الدنيا وهي مقبلة عليه، وعشق خالقه، حتى قال العرب: إن محمداً عشق ربه.

وراودَتهُ الجبالُ الشُّمُّ من ذَهبٍ   عَنْ نَفْسِــه فأراهــا أيَّما شَمَمِ

عندها تجلى عليه ربه، ورأى ما رأى من آيات ربه الكبرى ومنحه ربه عطاءات دائمية وخيرات كلية وما أصبح أهلاً لنواله إلا أنه: قدَّم لربه نفسه وقلبه وروحه وجسمه، إذ هجر الدنيا ومفاتنها، وفضل جانب الله فأغناه الله فأحب للخلق هذا النوال فأعطاه تعالى إياه: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ}**: قم فحوِّل الخلق إلي لأمنحهم ما أعددت لهم من خيرات وجنات علية، أمنحهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. هذا رسول الله ﷺ يشهد به تعالى بقوله:

{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ}[٢٧]: هذا الوسيط الذي جاءكم ليبلغكم كلامي وبياني إنما هو رسول كريم لا تجدون فيه شائبة أو نقصاً متحلٍّ بالكمال لذلك اجتبيته ليكون رسولاً للعالمين ﷺ، ذا قوةٍ وتحمل للتجلي الإلٓهي، مكينٍ: ثابت النفس عند الوحي لا يتزعزع، وهذا ما جعله أهلاً لتحمل رسالة ربه. هذه شهادة الله في القرآن به ﷺ، ومن أصدق من الله حديثاً.

---

[٢٧] سورة التكوير ـ الآية:١٩ـ٢٠.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}[28]: فالوحي يتنزل ليثبت به فؤاد النبي ﷺ الذي يتفطر على المعرضين حزناً وكادت أن تذهب نفسه حسرات عليهم.

وهو ﷺ: **{ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ..}**: أي تحمُّل للتجلي: **{..مَكِينٍ}**: أي ثابت القلب عند الوحي لا يتزعزع.

[28] سورة الفرقان ـ الآية:٣٢.

هل حقاً أن الله يحلف بالتينة والزيتونة؟!

كان العرب في الجاهلية أمة تعيش على هامش التاريخ، وتقتات على فتات موائد الأمم، تضيع في خضم واسع من رمال الصحارى التي تؤويها، وكافة الأكاسرة والقياصرة ينظرون إليهم نظرة لا تختلف عن نظرتهم إلى البهائم الضالة، أو الحيوانات الشاردة، فلا وزن لهم ولا قيمة.

يعبدون الشِّعر، ويجعلونه على كعبتهم، ويحجون إليه من كل حدب وصوب. بيت من الشِّعر يرفع إحدى القبائل عندهم إلى أعلى ذرا المجد، وبيت آخر يهوي بها إلى الحضيض.

حتى نزل الوحي، أي الذكر الحكيم، فتصاغر الشِّعر أمامه حتى ذاب خزياً وخجلاً، وتوارت فُحوله فغدت لا أثر لها بعد عين، وغض البيان طرفه وتراجع مخذولاً، حتى قال أفصحهم في القرآن: «إن أعلاه لمغدق، وأسفله لمونق، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة..» نعم إنه كتاب أحكمت آياته، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا شبه ولا شِيَةَ فيه. لا يمسُّه إلا المطهرون، ولا يذوق ما فيه إلاَّ مؤمن بلا إلّه إلاَّ الله، من تمسَّك به نجا، ومن تركه إلى غيره هلك. لا تنقضي عجائبه، ولا تفنى غرائبه، ما من أمة تمسكت به، وعملت بما جاء فيه، واهتدت بهديه إلاَّ وسادت أمم عصرها، فدانت لها الأرض وانحنت لها الرقاب.

صحْب رسول الله ﷺ الكرام، دحروا أعظم دولتين ضاربتين بالعالَم، بجيش ضئيل العَدَد، شحيح العُدد، بفترة لا تتجاوز الشهور في معركتي القادسية واليرموك: **{..كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ..}** [٢٩].

---

[٢٩] سورة البقرة ــ الآية:٢٤٩.

وأذِنَ الله بتطبيق ما في كتابه والسير بهدى تعاليمه.

وكذلك الأمة الكردية في عهد صلاح الدين، وحتى المماليك في عهد سيدنا الظاهر بيبرس، والدولة العثمانية سمت وسادت، وما كانت لتخبو جذوتها وتندثر بيارقها، لو لم تستبدل قوانين الخالق جلّ وعلا بقوانين المخلوق.

وعلى مرِّ الأجيال وتتابع القرون يعلنها القرآن تحدِّياً: صرخةً مدوية، على أن يجتمع الإنس والجن ويكون بعضهم لبعض ظهيراً، بلغاؤهم وفصحاؤهم والعباقرة فيهم، فليأتوا بمثله أو أثر منه، فعجزوا ولم يفلحوا أمام القرآن، هذه المعجزة الجبارة الخالدة، والتي تشهد بعظمته وقدرته تعالى.

سأل سائل:

طالما أن القرآن معجزة القرون، وعظيم فوق عظمة كل عظيم، ولا يستطيع مخلوق بالغاً ما بلغ الاتيان بمثله، ولا مطمح لمتحدٍّ إليه، فعلامَ نرى الضعفَ والركاكة والضآلة والسخف، في شروح معانيه الظاهرة بالتفاسير الشهيرة كلها، حتى فقدنا قيمة القرآن المعجز، بل أشاح الناس عنه لضآلة ومسخ تلك التعابير. المعروف شمولياً أن العظيم لا يقسم إلاَّ بعظيم حقاً، أو بأعظم منه. فالسلطان يقسم برأس أبيه السلطان الذي هو أعظم منه، أي بعظيم عليه، ولا يقسم بمن هو أدنى منه، لأن ذلك ينقص من قدره ومقامه. وتأبى عظمته اللانهائية وجلاله القسم بالكون العظيم علينا، فهو تعالى لا يقسم به ولا بسماواته وما فيها فهو يبين لنا:

{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}، مع أن هذا القسم علينا جدٌّ عظيم: **{وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}**[٣٠]، بل يقول تعالى:

---

[٣٠] سورة الواقعة ـ الآية:٧٥-٧٦.

{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ}[31]: فهي تجاه عظمتي لا تذكر، تجاه ما أعددته لعبادي المتقين، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إنما الكائنات أثر بعد عين، لذا حاشا لله العظيم، وجلَّ وتعالى عن أن يقسم بمخلوق يموت ضعيف يحتاج إلى القوت، لا حول له إلاَّ بالله العظيم ولا قوة، ولا يملك لنفسه بقاء ولا غذاء، إلاَّ بما يمدُّه به الرزاق العظيم، خالق الشمس وموجد البحار، خالق الرياح والسحب ومسيِّرها ومسخرها، مغيث المخلوقات بالأمطار الواحد القهار، لاسيما إذا كان ذلك المخلوق المُقسم به بادِّعائهم دون الإنسان الكامل بالقدر والمقام، إذ لم يحمل الأمانة، ودون المكلفين من بني الإنسان، بل هي كائنات مسخرة له، كالتينة والزيتونة، بل وغيرها من المخلوقات المسخرة والتي هي أدنى من الإنسان، فهي لم تحمل الأمانة التي تصدى لها:

كالضحى، والشمس، والقمر، والليل والنهار، والعصر، والفجر وليالٍ عشر، ويقولون أن الله العظيم يقسم بها!!

بل يستنكف أحدنا نحن المخلوقين بني البشر أن يقسم بالفجلة والتينة والبصلة والزيتونة، فينظر إليه السامعون إن أقسم مثلاً بالفجلة أو الزيتونة، أنه معتوه، أو مدقع بالفقر والبؤس والحاجة والحرمان حتى يرى لإفلاسه، عظمةً للفجلة أو الزيتونة، كونه جائع محروم.

فنحن لا نقبل بهذا قسماً، فكيف قبلها وقالها هؤلاء المفسرون ونسبوا القسم المزري المهين للعظيم حقاً، رب العزَّة؛ ربّ السماوات العلى، خالق الأكوان ورب العرش العظيم، عن أن يقسم بشيء مزرٍ مهين، يخفِّض من شأنه جلت عظمته وقيمته بهذا القسم، أي هل يصنع أحدنا دمية (لعبة) ثم يحلف مقسماً بها؟!

---

[31] سورة الحاقة – الآية:٣٨-٣٩.

هل هذا مقبول؟! أم معقول قولهم طالما أنه صنعها، فله الحق بأن يحلف أقساماً بها؟! فيكون جواب كل عاقل: نعم هؤلاء لا يعقلون ولا يفكرون بمَ يتقولون عن رب العالمين؟!

أهكذا يكون التفسير المليح، وبرأيهم صحيح، ذم ربِّ العالمين تخفيضاً لا يقوله ولا يسمعه بشر فيه ذرة من تفكير، والعاقل يعرض عنه؟!

هل يليق بربّ العزَّة هذا القول الرخيص.

أوَليس هو قول متهكِّم هازئ ساخر مَهين، وأحدنا لا يرضى ولا يقبل أن يُقسم أو يقال أنه أقسَم بفجلة أو تينة.

هذه التفاسير التي تقول عن الواو التي تسبق كثيراً من أوائل الكلمات لسورٍ من جزء عمَّ وغيرها أنها واو القسم، كيف وقعوا في هذا الخطأ الجسيم؟! أصلحهم الله وهداهم وردّهم إلى وجه الحق والحقيقة والدين.

فقد تَركَنا رسول الله ﷺ على بيضاء نقية ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلاَّ ضال.

السلطان لا يقسم إلاَّ برأس سلطان، والعظيم لا يقسم إلاَّ بعظيم، فهل يعقل أو يمر بالأذهان أن رب الملك والملكوت رب العزَّة، أن يقسم بزيتونة أو تينة؟!

هل نقبل قَسَمَ النجار بكرسي أو بمنضدة صنعها؟!

ولو أقسم بهما ألا يكون موضع السخرية وحكاية يتندَّر بها الناس في مجالسهم؟!

ثم لمن يقسم تعالى على زعمهم؟ ألكفار قريش ومشركيها؟!

تُرى ألا يسخرون؟! ألا يستهزئون؟!

وإذا ما مرَّ القسم مسبوقاً بلا النافية، يزعم البعض أنها زائدة ولا عمل لها.

إذن لماذا أوردها تعالى في كتابه العزيز؟! والزيادة أخت النقصان، ألا يكون ذلك عيباً في كتابه (لو قبلنا بزعمهم)؟!

وكمثال: على زعمهم في قوله تعالى: **{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}**: أي أقسم بهذا البلد وأن (لا) زائدة لا عمل لها، فمعنى ذلك أنه في قوله تعالى لرسوله الكريم: **{..وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً}**[32]: أي على زعمهم بأن (لا) زائدة أي: (أطع منهم آثماً أو كفوراً)!

أو: **{وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ}**[33]: أي (أطع كل همَّاز مناع للخير معتدٍ)! لأن (لا) بزعمهم زائدة!

تعالى الله ورسوله عن ذلك علواً كبيراً، وكيف يكون الكتاب محكماً إذا كانت فيه زيادة أو نقص؟! حتى قوانين اللغة لا تسمح بذلك، وإذا سلَّمنا بذلك أصبح النفي إثباتاً، والإثبات نفياً، فتضيع المفاهيم والمعاني السامية، ويغرق الناس في القيل والقال، وكثرة الخلاف، فيشيحون عن كتاب الله العظيم، ويصبح القرآن مهجوراً. وإذا ما تركنا القرآن إلى غيره، إلى أين نصل؟ وقانا الله وإياكم من ذلك.

وبعدُ، كيف نخرج من هذه المعضلة؟ أأقسم الله تعالى بمخلوقاته، أم لا؟

لنعد إلى جوهر بحثنا:

الحقيقة أن كلمة (عَمَّ) الواردة في سورة عَمَّ هي المفتاح لفهم وإدراك وشهود المعاني العالية الواردة في جميع آيات السورة الكريمة، بل

---

[32] سورة الإنسان – الآية:٢٤.
[33] سورة القلم – الآية:١٠-١٢.

وبجميع السور التي تليها: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}**، **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا}**.. وغيرها، كلّها عمَّت وشملت عباد الله جميعاً، وعلى العموم ودون تمييز أو حرمان لأحدٍ من نفعها وفوائدها: **{كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً}**[٣٤].

(عَمَّ): أجل لقد عمَّهم الله تعالى بفضله ورحمته وحنانه، وعطفه الدائم وتسييره الخيِّر لهم وللخلائق المسخَّرة لهم أيضاً.

أما المعرضون من قريش و من أتى بعدهم فبالرغم من كل هذه النعم الظاهرة والباطنة التي إن فكروا بها، توصلوا منها للعظيم جل وعلا، وبالرغم من هذه الحقائق التي ينبئهم بها رسول الله ﷺ، فإنهم يتساءلون مستنكرين كل ما أنبأهم به ﷺ من عناية الله تعالى بهم، وما عمَّهم به في تفضُّله عليهم بهذا الخلْق البديع الكامل، وما زانهم به من نِعَمٍ لا تحصى، كنعمة البصر والسمع والذوق والشم والحواس الأخرى، ورعايته إياهم في بطون أمهاتهم، ثم ما هيَّأه لهم من الحليب في أثداء أمهاتهم بعد إخراجهم لحيِّز الوجود، وما خلق لهم من أم وأب وإخوة لينسرُّوا مع بعضهم البعض، وينبسطوا ويتعاونوا، وما حباهم به تعالى من حنان وحب صبَّه بقلوب ذويهم.. فرحمهم به في بليغ ضعفهم، و نمَّاهم بنعم ودلال، كما سخَّر لهم الشمس والقمر والنجوم و الكواكب بأمره، وخلق لهم في الطبيعة الطيور يمتعوا سمعهم بموسيقا شدوها الرائع، ويستنشقوا عبير الفلِّ والزنبق والورود والزهور الناضرة، ويتذوقوا اللذائذ بحواسهم، فإن ذكَّرهم رسول الله ﷺ ليصل بهم إلى خالقها، خالق الجمال والخير والنعيم، بهذه النعم المتواردة من خالقهم خالق الكون، إذ هم يستنكرون ويستكبرون، ويتساءلون عن صدق هذا البيان والدلالة، مستكبرين أنها توصلهم للعظيم، مع أنها أوصلت سيدنا إبراهيم

---

[٣٤] سورة الإسراء – الآية:٢٠.

وكافة الأنبياء والمرسلين والمؤمنين المقرِّين والمعترفين بما عمَّهم به تعالى من جليل العناية، وعظيم الرعاية، فالتفتوا إلى ربهم بصدق، طالبين لقاءه ورضاه، فنالوا أمنيتهم الغالية، ومن طلب ربه لاقاه، ونال أقصى مناه، فهم له تعالى شاكرون ذاكرون، ولنصائحه مصغون، وليسوا كهؤلاء المعرضين مستنكرين.

فمن طرف حضرة الله، أتمَّ نعمه عليهم، أي عمَّهم بها بالمحسوس وبالملموس. وبالرغم من ذلك فهم يعاندون ويعارضون الواقع المحسوس، فمعارضتهم مردودة عليهم. وبقية هذه السورة توضح وتفصِّل ذلك، بما لا يدع لعاقل مجالاً أن ينكره. هذا وقد قرأ رسول الله ﷺ كلمة: (عَمَّ) مطلقة لشموليتها، لأن ما عمَّ الله تعالى به الخلائق لأجلنا لا حدَّ ولا عدَّ ولا نهاية له: **{..وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا..}**[35].

وهي عامة كاملة للخلائق على حد سواء، فالأرض جعلها مهاداً للجميع، والجبال أوتاداً لها من أجلنا، وجعل كل مَن خلق أزواجاً، ليتنعموا ويسعدوا جميعاً، وجعل النوم للجميع راحة وقطعاً للتعب والإرهاق، إلى آخر النعم المذكورة في هذه السورة رحمة وحباً بنا جميعاً.

لقد عمَّ فضل الله وإحسانه وحنانه وعطفه وتسييره الخير لسائر خلقه.

هكذا يفهم المؤمنون بما عمّهم وعمَّ الخلائق جميعاً من فضل هم به يقرُّون. ومع ذلك يتساءل المعرضون، هل عمَّنا الله بفضله وعطائه؟! يقولون عمَّ؟ هكذا يتساءلون بل يظنون أنه قد أعطى وحرم ومنح وهضم!

وخلق مفارقات عجيبة بين غني وفقير، وصحيح وعليل، وأكبر وأصغر، وأعلى وأحقر، وأقوى وأضعف، فهم في حقيقة أمرهم

---

[35] سورة إبراهيم – الآية:٣٤.

ينكرون بتساؤلاتهم ما يظهره لهم رسول الله ﷺ عن رحمة الله وحبه لهم، بل ويتساءلون مستنكرين: هل عمَّ بالحق والعدل، أم ميَّز وحابى؟ قبل أن يعقلوا أسماء الله الحسنى وحكمته البالغة من السمو والرفعة والخير بكل مخلوق خلق، وحبَّه تعالى الكامل، وعطفه الشامل على الكل، ثم قرَّبه بالحق والاستحقاق، أو منع عنه أو عن غيره بغية خيره، لما فيه شفاء نفسه، ليكسب الحياة الأبدية بالجنات العليَّة السرمدية.

هذا وفي حال استرسالنا ببقية السورة يتوضح لنا أن الله عمَّ وشمل الخلائق كلها برحمته، وكلأهم جميعاً بعيون رعايته وفضله: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً}**. فالواو الواردة قبل كل آية إنّما هي واو العطف لا واو القسم، فهي واو العطف والترادف، تبين عطف الله الرحيم على عباده، وترادف وتتالي خيراته وبره وإحسانه.

هذا وفي حال بلوغ الإنسان مراتب القرب من ربه الحنَّان المنَّان، يجد أن جميع السوَر التي تأتي بعد سورة النبأ ما هي إلاَّ تفصيل وشرح وتبيان عالٍ كريم للمعاني السامية العليَّة لكلمة (عَمَّ). وكل واو هي واو العطف كآيات: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}**، **{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا}**.

النازعات:

ففي سورة النازعات: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً}**.

أراد الله أن يعرِّف هذا الإنسان بذلك النظام الذي بموجبه تنزل الأمطار التي تتوقف عليها حياته. وأن يعرِّفه بتلك الإرادة الحكيمة

الساهرة على هذا الكون، تلك اليد القديرة القائمة على تسيير ما فيه دون أن تسهو عنه لحظة أو تنام.

والواو التي في أول هذه الآية والتي سموها واو القسم خطأ، إنما هي تشير إلى عظمة الشيء المذكور بعدها، فإذا فكر الإنسان فيه وتعمق في التفكير امتلأ قلبه بعظمته، وبالتالي فإنه ينتقل منه إلى تعظيم خالقه وموجده. وبمثل هذا التفكير المبني على المشاهدة والتأمل يحصل الإيمان. فالواو إنما هي للعطف على ما قبلها، مما عمنا الله به من خيراته وجزيل فضله وإحسانه. وإشارة ولفْت نظر الإنسان لما بعدها، وفيها عطف على سابقاتها من الآيات والسوَر التي تلي سورة عمَّ.

وهنا يتبين ويتجلى تمام الترابط في القرآن، وكمال الكمال، فحينما نقرأ قصة، نراها مترابطة متآزرة معانيها، لا تفكك فيها، ولا خروج عن المعنى، والمثل الأعلى لكلام الله العظيم.

ففي سورة النازعات يلفت تعالى نظرنا إلى أشعة الشمس، كيف تنزع الماء من البحر غرقاً بلطف وخفاء، حتى تكاد لا تدركه العيون حين تغوص أشعتها بالماء لتخرجه بخار ماء، ومن ثم كيف تنشط الرياح حاملة تلك الأبخرة من سطح البحر، مارةً بطبقات الجو بخفة ونشاط، حتى تصل بتلك الأبخرة إلى سماء الغيوم وحدها بنشاط: **{وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً}**: وبقانون ونظام، في أوقات محدودة، بسرعة معينة وبصورة لطيفة. ومن ثم كيف تتشكل الغيوم سابحة عائمة على متن الهواء سبحاً لطيفاً: **{وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً}**: فالقطعة الواحدة من السحاب تحمل بين طياتها قناطيراً مقنطرة من الماء، ومع ذلك فهي تجري بيسر وخفة، دون أدنى ضجيج ولا إزعاج، متسابقة إلى حيث شاء الله لتهطل، فينمو الزرع ويمتلئ الضرع، ويجري النهر ويملأ البئر، وتقوم الحياة الرغيدة، فتؤمِّن لك لذيذ طعامك وطيِّب شرابك.

ففي هذه الآيات لفت منه تعالى لهذا الإنسان، إلى عظمته جل وعلا، ومحبته لنا، وإرادته الحكيمة لاجتذاب سمعه إلى موعظته تعالى ونصحه.

الحقيقة أنه تعالى وحده لا يد ثانية معه، بيده السموات والأرض، والرياح والسحاب، موجد الماء، مقلِّب الدورة المائية، مخرج النبات والثمار. هو وحده يطعمنا ويسقينا، هو ربنا لا ربَّ سواه، بغيتنا دوماً طاعته لرضاه.

هو الأحق علينا من الكل، وإليه بعد الانتقال أيضاً مصيرنا.

البروج:

أيضاً في سورة البروج ساق لنا تعالى في مطلع هذه السورة ما يدلنا على عظمته وجلاله وعطفه، لتذعن نفوسنا إليه، من عظمة ما سخر لنا تعالى، وتصغي قلوبنا إلى كلامه، فقال سبحانه: **{وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ}** وهي تلك المجموعات النجمية العظيمة، التي تحل الشمس فيها متنَقلة على حسب أشهر السنة الشمسية.

نجم واحد منها المسمى بقلب العقرب أكبر من الأرض بأكثر من سبعين مليون مرة، ولو أنه حل مكان الشمس لملأ الفراغ الكائن بين الشمس والأرض، ولكانت الأرض نقطة فيه!

فما هذه القوة التي تمد هذا النجم بالضياء والحرارة؟! لا بل ما هذه القوة التي تمد سائر النجوم وتحملها وتسيِّرها؟! ما هذه القوة التي تربط نجوم كل برج ببعضها رغم أبعادها الهائلة؟!

فأقرب نجم منها يبعد عنَّا أربع سنوات ونصف سنة ضوئية. أي بعدٌ لا يكاد أن يتصوره عقل، أو يدركه فهم من لم يصل بعد للتقوى، أي الاستنارة بنور الله العظيم.

ولو أن نجماً واحداً منها زال وانعدم لاختلفت مواضع النجوم واختل نظام السماء كلها، ولما سارت الأرض سيرها ولأصبح العالم خراباً، ولكان بقاؤه على ما نحن عليه الآن مستحيلاً، فما أعظم المسيطر عليها والمسيِّر بيسرٍ لها!

فإنك أيها الإنسان إذا نظرت في السماء ذات البروج، وعرفت قدر خالقها الذي أوجدها وأحكم صنعها، فتوجهت بقلبك إليه تعالى، ولمست وجوده تعالى النوراني وعالي بهاه، أيقنت نفسك بوجود الإله، وعلمت أنه موجود يقيناً، فلا بدَّ إذن أنه سيسألها تعالى، ليجزيها على ما قدَّمت من أعمال بدنياها، فهنالك تؤمن باليوم الآخر وهو: **{وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ}**: فتعلم أنه حق، وأن هذا الخالق العظيم قادر على خلقك ثانية وإعادتك. فتحذر عاقبة الأعمال، إذ تعلم أن الذي خلق النجوم وجعلها بروجاً وجمعها بقدرته هذا الجمع البديع، قادر على أن يجمع الشاهد والمشهود ويوقفهما للحساب بين يديه في ذلك اليوم الموعود الذي لا ريب فيه. فالواو بآية: **{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ}** معطوفة على ما قبلها من الآيات، كآيات: **{وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً}**: فهي واو العطف، وهي تبين عطف الإلٓه علينا، وتتابع عطفه وعنايته الحبِّية البالغة بنا، يذكِّرنا رسوله ﷺ بها لنتوصل منها إلى ربها، كي نطيعه ونستقيم، فيكرمنا بجناته العلا.

الطارق:

وفي سورة الطارق أراد تعالى أن يلفت نظرنا إلى السماء، وما ينبعث عنها من الخيرات، فقال: **{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}**.

فهذه الواو واو العطف، ترينا بالغ عطفه تعالى وحَدَبه علينا، وما يكلؤنا به من طعام وشراب بواسطتها، ويده تعالى وحده المسيطرة

عليها بجمال وكمال ونِعمٍ لأجلنا. لأجل طعامنا وشرابنا، ولولاها لما أكلنا لقمة، ولا طمحنا لقطرة ماء عذبة، أو لأنهار دفَّاقة. هذه الواو واو العطف، تعطف نظرنا لباهر ضيائها ولألاء نورها، وفيوضات خيراتها، وكل ما على الأرض من نتاج السماء، إنها تلفت نظرنا إلى السماء، وليس فيها أي مجال لقسم.

هذا وإن القلم ليعجز عن كتابة ما في السماء من آيات، ففكِّر أيها الإنسان فيها، وراجع التفكير مرة بعد مرة، لعلك تقدِّر خالقها، وتستعظم ممدها ومربيها.

يقول تعالى: انظروا عبادي في السماء، وما يأتيكم عنها وبسبب وجودها، من الخير المتواصل المنبعث عنها، الذي لا يحصى ولا يدرك له حدّ، وكله من الفضل الإلّهي الحبِّي المتوارد علينا بواسطتها..

وبعد أن لفت تعالى نظرنا إلى السماء التي لا تتناهى، وبعد أن ذكَّرنا ما يعرِّفنا بعظيم شأنها، وبما ينجم عنها من الخيرات اللانهائية، حذَّر الإنسان من الفسوق والعصيان، وعرَّفه بأن صاحب هذا المقام والشأن الكبير، لا يصعب عليه أن يحصي على الإنسان جميع أعماله، فقال: **﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾**[٣٦].

أي أليس يشهد هذا الكون العظيم بأن خالقه قادر على أن يحصي على كل نفس عملها؟! هل نسي نفساً من خلقها ورزقها وإمدادها؟ فهو قادر أيضاً على إحصاء أعمالها ومنحها استحقاقها.

الفجر:

أما في سورة الفجر، فقد بدأ تعالى هذه السورة بآيات تعرِّف الإنسان بخالقه وموجد هذا الكون كله ومسيِّره، فلعله إذا فكر في ما يراه من

---

[٣٦] سورة الطارق – الآية:٤.

الآيات الكونية، توصل منها إلى الإيمان بربه، وهنالك يستقيم على ما أمره وينتهي عن طغيانه وضلاله، فينقلب إنساناً إنسانياً في صفاته وأعماله، وبذلك يجر الخير لنفسه، ويدفع الخسارة التي كانت لاحقة به، ولذا وحباً بك أيها الإنسان خاطبك ربك بقوله:

{وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ}.

وآية: **{هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ}**: أي لا تحتاج هذه الآية لقسم فأين واو القسم؟ وأين القسم؟!

إذن: ما دام الله تعالى ينفيه بقوله هل في ذلك قسم لذي حجر؟! أبعد بيانه تعالى بأنه لا قسم، هل هناك ثمَّة حاجة لبيان؟!!

فالفجر هو الظهور بصورة متلاحقة تدريجية، وهو أيضاً كل شيء يظهر من الخفاء إلى العيان متلاحقاً متتالياً.

فانظر أيها الإنسان إلى كل ما يظهر ويخرج بصورة متتالية من المواد والأثمار التي بها حياتك وبقاؤك، ثم فكر ودقق وتعمق في التفكير بذلك، فكر في هذه الحركة الدائمة، والنظام القائم الذي بموجبه تخرج النباتات، وتتوالد الثمرات فترة ففترة، وآناً بعد آن. إنه لو لم يكن خالق يخلق، وموجد يوجد، لما استمر السير، ولا نقطع الظهور والخلق، ولصار العالم كله إلى اضمحلال. فكر في ذلك كله تهتدي منه إلى خالقه، من النِّعمِ إلى المُنعِم الرحيم المتفضل.

التين:

في سورة التين أراد تعالى عطفاً منه علينا ورحمة أن يلفت نظر الإنسان إلى الخيرات التي يودعها ويبثها له في المخلوقات، فلعله إذا فكر بها انتقل منها إلى تعظيم خالقها وموجدها، فكان له من تعظيمه سبباً لوجهته وإقباله وسعادته. لذلك قال تعالى: **{وَالتِّينِ**

وَالزَّيْتُونِ}: فبواو العطف التي سبقت (وَالزَّيْتُونِ): يريد بذلك لفت نظر الإنسان وتوجيه تفكيره إلى ما في ثمرتي التين والزيتون من عظمة الخلق والخيرات التي بثَّها تعالى بهما.

فلو نظر الإنسان إلى هذه الثمرة مفكراً في كيفية تلقيحها وانعقادها، لوجدها أمراً عجيباً، الحلاوة التي فيها بعد استوائها ونضجها، وطعمها اللذيذ وهي تخرج من الخشب وليس في الخشب، من ذلك شيء!!

وأما الزيتون وما احتوى عليه من مادة دهنية، وليس في التراب الذي يتغذى منه دهن ولا زيت، فمن الذي أودع فيه الزيت وجعل له هذا الطعم اللذيذ؟

فتتالي هذه الآيات وعطفها يدلُّك على نفي أي قسم.

من الذي أخرج نبتة الزيتون الضعيفة من تلك النواة القاسية الصلبة التي لا تتكسر إلا بعد جهد جهيد؟ ما هذه القناطير المقنطرة من الزيت والزيتون التي تجود بها شجرة الزيتون التي تعيش وتعطي وتمنح الزيت والزيتون وتعمر مئات السنين؟

ذلك كله إنما انطوى في تلك النواة الصغيرة التي تلفظها من فمك غير ناظر ما أودعته فيها يد الخالق العظيم، والمدبر الحكيم، ففي ذكره تعالى للتين والزيتون تبياناً لما انطوى فيهما من حكمة الحكيم العالية، وقدرة القدير العظيمة، وفضل ونعمة منه تعالى وغذاء لعباده، وهو وحده تعالى منبع تلك الخيرات الذي يفيض بهذا الفضل الواسع والنعمة السابغة، وهي سبب للإيمان بمن وراءها جلَّ كرمه ودام لك، إن آمنت به تعالى.

وفي سورة الضحى وسورة الليل وسورة الشمس وغيرها طائفة كريمة عظيمة، من الآيات الدالة على فضل الله عليك، وعظيم رعايته لك وحنانه المستمر دون انقطاع. نعم إنها جميعها تدلُّك على

فضل ربك عليك، وتحذرك من الإعراض عن مصدر العطاء العالي الكريم، ونتائجه الخطيرة عليك دنيا وبرزخ وآخرة. وتبشِّرك في حال إقبالك عليه، بجنة عالية قطوفها دانية، لا تسمع فيها لاغية. إنها آيات تبين لك طريق الحياة الأبدية والسعادة السرمدية، تحت لواء رسوله الكريم ﷺ الذي دلَّك هذه الدلالة القرآنية العليّة، فلسان حال المؤمنين ينطق بالحق والإقرار بسورة عمَّ، وكلمة عمَّ أي:

نعم عمَّ الله عباده ومخلوقاته جميعها وكلأهم بعيون رعايته، كما عمَّنا وشملنا بفضله الواسع العميم.

أما لسان حال المعرضين الضالين، فهم في حال المستنكرين لما عمَّهم به تعالى من بالغ عنايته، وحكمة عطائه بغية شفاء قلوبهم السقيمة من حب الدنيا الدنية، ثم تسليط العلاجات الشديدة علَّهم يشيحون عنها ويلتفتون لما خُلقوا من أجله، ولما أعدَّه تعالى لهم من الخيرات، فإن ثابوا عن غيِّهم وآبوا بقلوبهم لربهم، منحهم السعادة في دنياهم، والعطاءات السرمدية والجنات الأبدية.

بذلك يستطيع من أدرك معاني كلمة عمَّ فعقلها فآمن بالله من ثناياها على الواقع العملي لها، أن يشهد معاني سورة النبأ، وكذلك كافة جزء عمَّ، ومن استيقن بفضل الله مما عمَّنا به من نعم وإحسان، يستطيع إدراك معاني جميع آيات القرآن وسوَره، **{..قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء..}**[٣٧]، هذا قول الله الذي عمَّنا بفضله وكرمه، وعظيم رعاياته وإمداداته.

المؤمنون فكروا وتعمقوا حتى عقلوا هذه الكلمة (عمَّ)، فآمنوا بما عمَّهم تعالى به من عميم فضله وإحسانه ورحمته وعطاءاته، أي آمنوا بلا إلَه إلا الله، من ثنايا ما لفتهم إليه تعالى من آيات كونية

---

[٣٧] سورة فصلت ـ الآية:٤٤.

ذكرها في جزء عمَّ. لقد قدروا النِّعم والتي من خلالها قدروا المنعم جل وعلا، ومن لا يقدِّر النعم الإلَهية فهو ليس بمؤمن.

هذا وقد جاء تعالى بلطيف الإشارة وعظيم الدلالة، تعريفاً بعظمته تعالى، وجليل شأنه، فلعلَّنا إن عرفنا عظمته وأصغينا لقوله، عندئذ تشهد نفوسنا الحقائق وتؤمن به، لتعلم أيها الإنسان أن الذي أكرمك هذا الإكرام، حريص عليك ومحب لك، ولا يريد في ما بيَّنه لك إلا تحذيرك وتنبيهك. فلعلك تنتبه لكلامه وتصغي إلى إرشاده، وتسعى في ما يجعلك أهلاً لما أعدَّه تعالى لك من النعيم المقيم. قال سبحانه يلفت الأنظار ويحرك الأفكار:

الخُنّس:

{فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}[٣٨]: ولا نافية للقسم، والخنس تعني النجوم الجاريات في مداراتها المخصصة لها كانسة لا تخرج عن التحرك في مداراتها، سابحة في أفلاكها ومجاريها، فلا تتجاوزها ولا تتعداها، إذا طلع النور أضاءت شمس النهار تخنس، فلا نعود نرى أجرامها ونورها، وها قد بيَّن تعالى لنا عن عظمة النجوم التي لم يقسم جلَّ جلاله بها: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}**[٣٩]، فهذه النجوم ومنها الضخم جداً التي لا يكاد يحصيها العدُّ، ملازمة لأفلاكها دون أن يصطدم نجم بنجم، أو يخرج عن مداره ومجراه، فمن المسيطر عليها وعلى كل نجم فيها، هذه السيطرة الرهيبة الاستمرارية، ما أعظمه!

إذا أنت نظرت أيها الإنسان إليها نظرات ملؤها التفكير والإمعان، هالك أمرها وقدَّرت عظمتها!! ولكن إذا أنت رجعت إلى كلمة (لا أقسم) استطعت أن تنتقل منها إلى عظمة خالقها، تلك العظمة التي

---

[٣٨] سورة التكوير – الآية:١٥-١٦.

[٣٩] سورة الواقعة – الآية:٧٥-٧٦.

لا تتناهى، وتخشع نفسك لجلاله تعالى، فما خلْق النجوم كلها وإمدادها وتسييرها وتدبير شؤونها إلا بأمر واحد منه تعالى وبكلمة: (كن). وذلك لفظ يقرب لك الحقيقة الإلٓهية التي هي أعظم من أن يدركها إدراك، أو يصل إلى كنهها عقل أي مخلوق من المخلوقات، إلا بمقدار.

فبالنسبة لعظمة خالقها التي لا تتناهى، فهذه الأجرام الهائلة الكبرى هي ذرة من عظمة خالقها ممدها، فهي وعظَمتها تجاه عظمته تعالى لا تذكر، فكيف يستسيغون القسم بالتين وما دونه؟!

الانشقاق:

بسورة الانشقاق قوله تعالى: **{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ}**.

فهذا الأسلوب الخطابي الرقيق بقوله تعالى (لَآ أُقْسِمُ): بيان لشأن المذكور بعدها، أي أنه عظيم جداً، وأنك إذا فكرت فيه استعظمته واستكبرته، لكنه عليه تعالى يسير هيّن:

{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ}: أي لا أقسم بما في الشفق من الخير والإحسان والعطف والحنان، **{وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ}** وهذه الواو واو العطف في أول هذه الآية تبين أيضاً شأن الليل فإنها تقول: ولا أقسم بالليل فهو عليكم عظيم جداً، بخيراته التي يسببها لكم، وذو شأن جدير بالإكبار والإعجاب، من حيث زيادته ونقصانه التي بسببها تتكوَّن الفصول الأربعة وخيراتها العميمة وأمطارها والمزروعات، ودوران دواليب الحياة كلها، لكن الليل، هذه الآية العظمى عليه تعالى من أيسر الأمور وأهونها. إذن (فلا) هنا نافية ولا أصل لما يقولون أنها زائدة أبداً.

فما أعظمك يا رب، وما أكبر عطفك علينا بتسخيرها لخدمتنا لنستدل عليك يا خالق العظمة والجلال، بعدها تمنحنا من فيوضات فضلك

ما لا خطر على قلب بشر، خيرات دوماً تفيض ولا تقارن بها خيرات الليل الماديّة الكبرى لأن خيراتك يا رب مترعة بودادك ومزيد رضاك.

البلد:

أما في سورة البلد فيبدأ تعالى بذكر طائفة من الآيات الدالة على عظمة الكون ودقة صنعه، لأن تعظيم الكون والتطلع إلى إحكام صنعه، يسوقنا إلى تعظيم خالق الكون وموجده، وهذا التعظيم للخالق جل جلاله، يحملنا إلى الإصغاء لكلامه، والإذعان لهداه وعالي دلالته، ولذلك قال تعالى:

{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}، وقوله تعالى يتناسب مع شمول كمال الله، لما ينطوي عليه الكون من أشياء، وما ضمَّه بين أرضه وسمائه من مخلوقات.

وإذا نحن نظرنا هذه النظرة الواسعة رأينا الكون كلَّه بلداً واحداً ومقاماً لهذه المخلوقات، فلكل طائفة مقر، ولكل فئة منها فيه مسكن. فسطح الأرض اليابسة: مقام هذا الإنسان، وبطن الأرض: مقام النمل والحشرات، والبحار: مقام الأسماك، وهذا الفضاء الواسع الذي لا يتناهى، موطن النجوم السابحة، وهكذا فالكون كله بلد واحد، فإن نظرنا هذه النظرة الواسعة، عظمنا خالقنا وأكبرناه، وعرفنا جلاله تعالى.

وقد أراد سبحانه أن يعرفنا بعظمته أكثر فقال: **{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}** أي: إذا كنت قد شهدت ما شهدت أيها الإنسان من عظمة الكون، فاعلم أن خالقك أعظم، وأنه لا حد ولا انتهاء لعظمته، فهو خالقه وممدُّه ومسيِّره فالله يقول: هذا الكون العظيم الذي تحار فيه العقول، أنا لا أقسم به، تجاه عظمتي، التي سأشهدك عليها برجوعك إليّ وما

أعددته لك من جنات وخيرات، يتضاءل تجاهها هذا الكون الزائل ومن فيه.

إذن (لا) هنا أيضاً نافية للقَسم.

فلا أقسم بما تبصرون:

وفي قوله تعالى: **{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ}**. كل ما ترونه بأعينكم من سماوات وأرض وجبال وبحار وشمس وقمر، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

{وَمَا لَا تُبْصِرُونَ}: وكل ما لا ترونه من عوالم الملائكة والجن، وما لا تصل مداه أبصاركم ولا بصائركم تجاه عظمتي، وما أعددته لكم بحناني من فضل وإحسان، لا يستحق أن أقسم به، ولكن ما حوى كتابي وقولي من خيرات لكم، هي الخير الدائم العظيم: **{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}**[٤٠]، لا أقسم بكل ذلك، فكل ذلك كان عليه تعالى هين ويسير، إذ بكلمةٍ منه تعالى (كن) كان ما هو كائن، فالقسم لا يكون إلاَّ بعظيم. ولا عظيم سواه، فهو صانع كل عظمة وموجدها ومرفدها وممدها على الدوام، ولا إلّه إلا هو.

وهذه المخلوقات التي يقولون أنه تعالى يقسم بها، هي مخلوقات غير مكلفة عجزت عن حمل الأمانة التي حملها الرسول العظيم وفاز بها، وتبعه الأنبياء والمتقون من المؤمنين، بل إن هذه المخلوقات من تين وزيتون وقمر ونجم وشمس.. هي مسخَّرة للإنسان، فأنى لله العظيم أن يقسم بها؟ لا، لا.. هذا لا يكون: بمن أقسم تعالى إذن؟

فالله لم يقسم بآياته أبداً بما تبصر الناس قاطبة وبما لا تبصر، إلاَّ أنه تعالى أقسم فقط بسيد الخلق الصادق الأمين العطوف الرحيم ذو

---

[٤٠] سورة الحاقة ــ الآية:٣٨-٤٠.

الخُلق العظيم، السابق الأسبق، سيد السادة النبيين والمرسلين والعالَمين، أقسم بحياة الرسول العالية الغالية ﷺ إذ قال تعالى:

لعمركَ:

{لَعَمْرُكَ..}: يا محمد وحياتك العالية: **{..لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}**[41].

لعمرك الذي لم تضيع منه لحظة إلا كسبتها في الخيرات، منذ أن خرجت إلى الدنيا، نعم لم يضيع ﷺ منها لحظة، بل اكتسب الحياة كلها بأعلى معالي الأمور، فهدى الأمم إلى الله فالسعادة والجنات.

فكم له من شأن ومكانة عند الله، وكم له من عمل عال، وخلق كريم، فلننظر إلى حياة الرسول ﷺ:

حيث أن زمن الرسول ﷺ كان للبشرية كلها وللإنسانية قاطبة، خير عصر وأجلّ زمان، وبما أن الكمال الإنساني الذي ظهر من ذلك الإنسان العظيم طوال حياته لم يستطع أن يماثله فيه أحد من المخلوقات، منذ أن أوجد الله تعالى البشرية على سطح الكرة الأرضية إلى نهاية الدوران، لذا أراد تعالى أن يعرِّف رسوله الكريم بذلك المقام الرفيع الذي ما ناله أحد مثله في العالمين، وأن يعرفنا نحن بني الإنسان، أن عمر رسول الله ﷺ أشرف وأجلّ عمر فقال تعالى:

{لَعَمْرُكَ} أي: وعمرك السامي المليء بجلائل الأعمال والبطولات المشحونة بالجهاد الإنساني المقدس والتضحيات، المتميز على سائر القرون بالفضيلة التي غرست في القلوب أصولها، المشرق بالإيمان الذي هديت الناس إليه، فكانوا به سادة الأمم وقادتها، الزاخر بالمعرفة بالله التي لا يطمئن القلب إلاَّ بها، ولا تسعد البشرية إلاَّ إذا

---

[41] سورة الحجر – الآية:٧٢.

حصلت عليها، وهكذا عدِّد ما شئت من أوصاف عالية لهذا العمر الذي كان على الدهر كله منارة يضيء للأجيال طريقها إلى السعادة، ونبراساً يهدي البشرية إلى ما تصبو إليه من كمال وفضيلة وحياة طيبة. تجد قلمك عاجزاً، ولسانك قاصراً، عن بيان ما لهذا العمر من سمو وما انطوى عليه من أعمال جليلة، وما أنت بمستطيع، وما أحد في العالمين بمستطيع أن يحيط وصفاً بذلك العمر العالي الرفيع.

لقد جاء ﷺ إلى هذه الدنيا فوجد قلوباً متنافرة.. وأمماً متباغضة، وإنسانية معذبة غارقة في الجهالات، منغمسة في الفساد، تائهة في الضلالات، فما زال جاهداً حتى جعل هذا الإنسان يزهد في الكدرة، لقاء ما وصل إليه من جوهرة، بها سعادة الدنيا والآخرة. ما زال جاهداً حتى جعل من أولئك الأفراد المتنازعين المتفرقين، أمة قوية تسوس العالم، وتأخذ بيد الإنسانية من الضلال إلى الهدى، فإذا بالأجيال، تسير وراء الأجيال خارجة من الظلمات إلى النور.

ونحن بما حصلنا عليه في هذا العصر، قبس من نور جهاد عمره الشريف، وما أراني مهما ذكرت ووضحت بمبين ذرة من بحر، من ميزات هذا العمر. وكفاه شرفاً أن الله تعالى خصه بالذكر في محكم كتابه الكريم تجدد ذكراه كلما تلاه تال، وتشرفت به مسامع إنسان، إذ قال تعالى **{لَعَمْرُكَ..}**.

فمن عمره مثل عمر رسول الله ﷺ؟ فيه خرَّج الأبطال فكان أشرف عمر على مر الدهور والأجيال، فإذا ذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياته الشريفة، فقد ذكرت البطولة والشجاعة والتضحية الرائعة، ذكرت الرأفة والحنان والرحمة، تمثل لك النبل والوفاء والمروءة والإيثار. ذكرت العلم والحكمة، وبدا لك العطف واللطف، والعدل والإحسان، لا بل رأيت الفضائل كلها ماثلة بأبهر مظاهرها، وأروع وأجلى مشاهدها في ذلك الزمان المشرق به ﷺ، على جميع الأزمان.

ليكن لك من هذا الإنسان العظيم المثل الأعلى في اغتنام هذه الفرصة من الحياة، وعزِّر ووقر رسول الله ﷺ وليكن في نفسك له ذلك التعظيم والتقدير. هنالك تدخل بمعيته على الله، فتسمو نفسك كما تسامت نفوس الصحابة الكرام من قبل، الذين وقَّروا رسول الله ﷺ وتفانوا في محبته. فما كان أحدهم ينصرف عن صاحبه حتى يتلو عليه عظمة (لعمرك) يا محمد، فلا يفترقان إلا بعد تعظيم وتقدير لذلك الرسول الكريم، وينقلبان ونفس كل منهما تمتلأ بمحبة رسول الله ﷺ، سابحة بصحبة تلك النفس الزكية الطاهرة في بحار الحب والمعرفة بالله.

وهكذا فعظِّم من خصه الله بالقسم دون العالمين لما له من عظيم الشأن وعالي المكانة، شفيعك ورسولك الطاهر الأمين. وأكرم به وأنعم وصلِّ وسلم له تسليماً يأتك الخير العظيم بأجمعه، وأنت قلبيّاً بمعيَّته، وتعود إلى ربك عوداً جميلاً مترعاً بشفاعته ﷺ بتلك الصحبة النفسية النوارنية الشريفة فتنير لك نفسك بعد الموت فلا ظلام، وتغدو إنساناً إنسانياً تأنس دواماً معه بربِّه، وتنال أسمى الصفات والمكرمات، ويأنس بك كل مخلوق، إذ غدت نفسك لا تفيض على من حولك وعلى الناس إلا بالخير والذي تتشربه من الله لنفسك وللناس. وأكرم به وأحبب تنل ما ناله الصديقون والشهداء والصالحون، وحسن أولئك رفيقاً.

ما حقيقة عزرائيل؟!

حقيقة! من هو ذاك المسمَّى (عزرائيل)؟

إذ لا يكاد يوجد مسلم أيّاً كانت درجته الثقافية أو الاجتماعية، إلاَّ ويجيبك:

(إنه ملك الموت) المعروف. فما هذا التساؤل البديهي، ألست مسلماً، أليست لديك أدنى ثقافة إسلامية حتى تسأل هذا السؤال البسيط جداً؟!

ولكن قبل أن أجيبك، أودُّ البحث في هذا السؤال الهام:

لماذا لم يذكر الله تعالى في القرآن الكريم اسم عزرائيل على الإطلاق، علماً بأن الله تعالى ما فرَّط في الكتاب من شيء، بل: هو تفصيل لكل شيء؛ فكيف لم يذكره تعالى إن كان من الملائكة الكبار حقاً؟! والله تعالى يقول:

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ..}[42]: الملائكة، وليس عزرائيل.

{..وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ..}[43].

{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}[44].

{وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً}[45].

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[46].

---

[42] سورة النحل – الآية:٢٨.
[43] سورة الأنعام – الآية:٩٣.
[44] سورة السجدة – الآية:١١.
[45] سورة الفجر – الآية:٢٢.
[46] سورة النحل – الآية:٣٢.

{..حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ..}[٤٧].

فلا يوجد ذكر لعزرائيل بين الملائكة، والوفاة تتمُّ عن طريق مَلَك الموت، فهو ملَك.

وقد ذكر الله تعالى اسم جبرائيل، أي: **{..وَجِبْرِيلَ..}**، واسم ميكائيل، أي: **{..وَمِيكَالَ..}**[٤٨]، ولم يورد تعالى ذكر (عزرائيل) في القرآن، فمن أين أتوا به؟!

أنبئونا بعلم إن كنتم بعزرائيل عالمين؟

الحقيقة المذهلة

فالحقيقة أنه تعالى لم يذكر اسم (عزرائيل) على الإطلاق في كتابه المقدَّس القرآن الكريم.

أيضاً لم يذكر اسم (عزرائيل) في أحاديث رسول الله ﷺ، (إذ ورد في كتاب «حاشية السندي»، الجزء الرابع، الصفحة (١١٨)) بأن: «ملك الموت لم يرد تسميته في حديث، ولم يذكر اسم عزرائيل».

وفعلاً قمنا بالبحث عن هذا الاسم (عزرائيل) في الكتب التسعة للأحاديث النبوية: (البخاري، مسلم، الإمام أحمد، ابن ماجه، النسائي، الترمذي، أبو داود، الإمام مالك، الدارامي) ولم يتم العثور على كلمة (عزرائيل) إطلاقاً.

وكذلك لم توجد تلك الكلمة في المتون الصحاح:

(المستدرك على الصحيحين، والمسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، والأحاديث المختارة للمقدسي، وموارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان للهيثمي، وصحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان،

---

[٤٧] سورة الأعراف ـ الآية:٣٧.
[٤٨] سورة البقرة ـ الآية:٩٨.

والمنتقى لابن الجارود). ومتون السنن جميعها: (كمسند الإمام الشافعي، وسنن البيهقي، ومجمع الزوائد..).

فذكْر (اسم عزرائيل لم يرد أبداً على لسان رسول الله ﷺ)، ولم يثبت ذلك من جهته أبداً، كما أنه لم يرد في كتب التفسير: (للجلالين، وابن كثير، والطبري، وأحكام القرآن للشافعي)، لم يرد ذكرٌ له، غير أن القرطبي انفرد بذكر هذا المسمى (عزرائيل). وما روي في تفسير القرطبي، الجزء (١٩)، الصفحة (١٩٤) بأن:

«عزرائيل: ملك الموت، وهو الموكل بقبض الأنفس في البر والبحر»، فإنه يناقض تماماً الآية القرآنية في قوله تعالى: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا..}**[٤٩]. إذ أن قبض النفس بالنوم غير قبض الروح بالموت.

فالله تعالى بالآية السابقة يقول بأنه هو تعالى:

{..يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ..}؛ وليس ملك الموت كما يقول (القرطبي).

وما ذكر في كتاب «العظمة» للأصبهاني، الجزء الثالث، الصفحة (٩٠٩) عن وصف عزرائيل بأنه:

«ملك الموت وله عينان، عين في وجهه، وعين في قفاه، وأن الدنيا تُركت له مثل الطست يتناول منها حيث شاء، وأن الدنيا بين ركبتيه وهو جالس»، إن هي إلاَّ أوهام وضعت على ألسنة بعض مقلِّدة العلماء، ومن البداهة أنها لا تحتاج لمناقشة لكونها لا تتعدى حكايات العجائز، والأساطير التي يروونها لأحفادهم.

فهل يليق بالملائكة الكرام **(أجمل خلق الله)**، بأن يوصف أحدهم بأن له عين في قفاه؟! وماذا تفعل تلك العين هناك، وما وظيفتها؟! والدنيا كرة وليست طستاً منبسطاً!! وعزرائيل يتناول منها حيث شاء!!

---

[٤٩] سورة الزمر – الآية:٤٢.

ولمن المشيئة؟ لله، أم لعزرائيل!! أَوَليست لله؟! أما ورد عن ملائكة الموت في القرآن الكريم، بأنهم عدد وليسوا فرداً واحداً، ففي قوله تعالى: **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ}**[٥٠].

فهؤلاء الحفظة الذين أرسلهم الله: **{..وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً..}**، هم الذين يتوفون المرء عند الموت: **{..تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا..}**. إذن: **{..وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً..}**: ينتظرون حركاتك ويكتبون عليك، **{..حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا..}**: توفته رسلنا: أي الذين أرسلهم الله علينا حفظة، وهم: ملَكُ الموت: يتوفى روحه، والرقيب والعتيد: يكتبان أعمالَه وأقواله، وملَك الإلهام: كل دلالته الخيّرة له.

ففي الآية الكريمة: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى..}**: الرقيب والعتيد. **{..وَثُلَاثَ..}**: ملك الإلهام، لكن المعرضين عن الله لا يسمعون النداء من صمم آذانهم: **{..وَرُبَاعَ..}**[٥١]: ملك الموت.

{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ..}[٥٢]: فعند موت الإنسان يتوفاه ملك الموت بأن يسحب روحه فتتبعها نفسه[٥٣]، إذ لا مقام للنفس بلا روح، كذلك يستوفي الملكان أعماله، الرقيب والعتيد، ويُغلق سجله على أعماله التي سيكافأ أو يجازى بها **{..إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}**[٥٤].

---

[٥٠] سورة الأنعام ـ الآية:٦١.
[٥١] سورة فاطر ـ الآية:١.
[٥٢] سورة السجدة ـ الآية:١١.
[٥٣] وملك الموت هذا هو الذي وكّل سابقاً بوضع الروح لهذا الإنسان مُذ كان نطفة فعلقة.
[٥٤] سورة الطور ـ الآية:١٦.

{..وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ}: فهؤلاء الحفظة لا يفرِّطون في شيء من أعمالك، لا صغيرة ولا كبيرة، كله مكتوب باللحظة، كذلك لا يتأخر ملك الموت إذا جاء أجل هذا الإنسان لحظة، ولا يسبِّق لحظة.

{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ}[55]: فهؤلاء الحفظة الموكَّلون بالإنسان مع ملك الموت، هم الذين يتوفونه عند الموت.

فأما إن كان ظالماً: **{..وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ..}**: عند النزع ساعة قبض الروح. **{..وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ..}**: عليه لقبض روحه.

{..أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ..}[56]: الآن، الكافر لا يريد الخروج، روح المعرض كالحرير على الشوك، يسحبون روحه وهو يصيح.

وهؤلاء الملائكة لا يقفون عند هذا الحد رحمةً بهذا الكافر المعرض. **{..وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ..}** لو تعلم حالهم ساعة موتهم: **{..يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ..}**[57]: ضيّعت الشيء الثمين الأبدي الذي خلقت من أجله والغبطة الأبدية، بدنيا دنيَّة ذهبت وانقضت، بالحياة الأبدية. يضربونه ليحوِّلوه عن دناءته وخزيه، ليغطوا عنه ما فيه من عار وحسرات. فضرْبهم هذا رحمة وحنان، لينسى هذا المعرض حالته المنحطة التي أصبح فيها بما قدَّمت يداه، عندها يستسلم. **{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ..}**: لم أعمل شيئاً. فتجيبه الملائكة: **{..بَلَى..}**: أنت تكذب لا تنكر. **{..إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}**[58].

---

[55] سورة الانفطار – الآية:١٠-١١.
[56] سورة الأنعام – الآية:٩٣.
[57] سورة الأنفال – الآية:٥٠.
[58] سورة النحل – الآية:٢٨.

وأما إن كان من: **{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ..}**: من كل شائبة، لا شائبة بنفوسهم، ليس فيها قذر ولا وسخ، حيث طابت بالصلة بالله.
{..يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ}: الأمان عليكم لا نصب ولا شقاء.

{..ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[٥٩]: ادخلوا في النعيم بما كنتم تعملون.

إذن الملائكة المكلفون بتوفي الإنسان، هم مع الملائكة الحفظة الذين أرسلهم الله، يكتبون أعمال المرء بكل لحظة، وهم لا يفرطون. سواء كان العمل صالحاً أم طالحاً. فهم جمع، (ملائكة الموت)، وليس واحداً أي عزرائيل، فلكل إنسان أربع ملائكة: مَلك موت مع ملك الإلهام والرقيب والعتيد. أما الآية: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}**[٦٠]. تدلُّنا أن كلمة: **(ملك الموت)** اسم جنس لملائكة الموت كأن تقول: (إنسان آسيا) فهو اسم جنس مفرد، ولكن يقصد به الكثير وقد يصل إلى الملايين والمليارات.

فالملك: اسم جنس للملائكة، كما أن كلمة إنسان تطلق على المفرد والجمع لتشمل الجنس فتقول: «هذا الإنسان الذي حمل الأمانة» وعلى المفرد: «جاء إنسان لدارنا فأضفناه».

وهكذا ورد بالقرآن الكريم كثير من الآيات تأتي بصيغة المفرد وبصيغة الجمع لجمع الجنس كقوله تعالى: **{وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً..}**[٦١]: فكم من ملك في السموات؟ أعداد لا نهائية.

---

[٥٩] سورة النحل ـ الآية:٣٢.
[٦٠] سورة السجدة ـ الآية:١١.
[٦١] سورة النجم ـ الآية:٢٦.

وقوله تعالى: **{وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً}**[٦٢] فكلمة: الملَك تشير للملائكة المتتابعة في صفوف متتالية صفاً صفاً، وقد أتت الصيغة بالمفرد (الملَك) اسم الجنس للملائكة الكرام تدل على الكثرة. وقوله تعالى: **{وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا..}**[٦٣]: فكم من ملك على أرجاء السماء؟ لا يعلم عددهم إلاَّ الله وجاءت بلفظ اسم الجنس (ملك).

وهكذا فالمقصود بآية: **{..مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ..}** أي: كل ملك وكِّل بوفاة أحد من البشر.

إذن: لا وجود لعزرائيل، ذلك الاسم الموهوم أبداً، لا في القرآن الكريم، ولا في الأحاديث الشريفة، إنما هناك ملك الموت فقط، فإن كان هناك ثمة ملك، فليس هو أبداً بعزرائيل الذي لا أصل له.

أوردنا ذلك لتصحيح المعلومات، سدد الله خطاكم وخطانا للصواب، وأبعد عنكم وعنَّا شرَّ الدسوس، وربك على كل شيء حفيظ.

---

[٦٢] سورة الفجر ـ الآية:٢٢.
[٦٣] سورة الحاقة ـ الآية:١٦-١٧.

كيف سمح تعالى بزواج الإخوة والأخوات

أبناء سيدنا آدم عليه السلام؟!

(قضية علمية دينية)

هل زواج الإخوة من الأخوات حلال؟! والعياذ بالله.

• أولاد سيدنا آدم عليه السلام، كيف تزوج الأخ أخته، إذ لم يكن بالعالَم إلاَّ آدم وحواء، وأولادهما الإخوة والأخوات؟!

• كيف تزوجوا من بعضهم البعض، وتناسل الناس وكثروا، مع أن زواج الإخوة بالأخوات محرَّم غير صالح للنسل وللقلب ولا يجوز؟!

• كيف حُلل إذ ذاك، وحرِّم بعدها، مع أن الحلال دوماً حلال، والحرام دوماً حرام، ولا تناقض بشريعة الله: **{شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً..}**[٦٤]: ولا معقِّب لحكمه تعالى، ولا مبدِّل لكلماته، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

فنقول: إن سيدنا آدم عليه السلام هو أبو البشرية قاطبة، وأول من ظهر من الإنس على وجه البسيطة، وبه وبأمِّنا حواء عليهما السلام ابتدأت الحياة والمعيشة على ظهر المعمورة وسرت إلى يومنا هذا. وكما نعلم أن سيدنا آدم خلقه تعالى بكلمة **(كن)** فكان عليه السلام. فلا أب له ولا أم، بل هو الأب الأول لعالم الإنس.

فكيف يا ترى سارت الحياة وانتظمت سنن الخلق لنا كما نراها الآن، وما كان من بشر سوى سيدنا آدم وزوجه أمنا حواء عليهما السلام؟ فهما وحيدان في العالم.

[٦٤] سورة الشورى – الآية:١٣.

فلهذا السبب رتَّب الله الحكيم لهما قانوناً تسير بموجبه الحياة بشكل مؤقت، ريثما تنشأ أجيال من ذريتهما، وتستمر الحياة بشكلها الطبيعي.

فالله عز وجل هو المشرع، وهو واضع القوانين جميعها بكمال الكمال، وبيده ملكوت السموات والأرض، وتسييرهما ضمن الحكمة والحق والفضيلة والخير.

وكما يقال: أن أمنا حواء عليها السلام ولدت عشرين بطناً، حملت بكل بطن ذكراً وأنثى، فأوحى الله تعالى لأبينا آدم عليه السلام أن يأكل وبنيه من البطن الأول، من مادة واحدة فقط: **(الحنطة)** مثلاً.

ثم أمره تعالى أن يأكل وبنيه من البطن الثاني من مادة ثانية: **(الحمص)** مثلاً. وكل جيلٍ منهما اقتصر على صنف واحدٍ من الطعام.

نتيجة لذلك جاء الدم **(الذي منه بناء الجسم ونماؤه)** في البطن الأول مختلفاً عن البطن الثاني. لذلك سمح تعالى التبادل بالزواج بين البطنين الأول والثاني، أي الابن من البطن الأول يأخذ البنت من البطن الثاني وبالعكس.

أما الحكمة من لزوم التبادل بين كل بطنين من أولاد سيدنا آدم، فهي اختلاف الدم في كل بطن، نتيجة اختلاف المادة المغذية من بطن لآخر.

أما إذا اتحد الدم في حال أكلهم من أطعمة متماثلة، فالذرية تأتي ضعيفة البنية ولا تصلح للحياة، أو تكون مصابة بالعلل الخطيرة كالشلل أو العمى أو غيرها.. وذلك لضعف الميل النفسي، ولفتور العلاقة بين الزوجين الإخوة. ولا تقوى العلاقات الزوجية لضعف الميْل الجنسي وفتوره، بل يصل للنفور والكره، للتشابه الحاصل بتركيب البُنْيَتـيـن.

أمَّا عند اختلاف الدم، فتقوى العلاقة الزوجية، وتصبح الميول النفسية قوية بأوجها، وبالتقارب الزوجي تجري مادة الحياة من كافة الأعضاء فتأتي الذرية قوية سليمة من العاهات، وهذا ما ثبت علمياً في هذا العصر.

وتمَّ ذلك الزواج لمرة واحدة بين بني آدم عليه السلام الإخوة والأخوات، بسبب اختلاف تركيب البدن، جراء الاقتصار على نوعية واحدة متباينة من الطعام.

ومن الملاحظ الفرق بين العرق الأصفر في الصين بسبب الاقتصار على أكل الرز تقريباً، واختلاف التكوين الشكلي والظاهري نوعاً ما عن بقية الأجناس البشرية التي تتناول الأطعمة المتنوعة.

فالجسم البشري جزء من هذا الكون، يتأثر ويتبدل بالأطعمة بشكل رئيسي والأمكنة، كما هو الفرق ظاهر بين سكان الجبال وسكان الصحاري والسهول.

ثم أوقف تعالى ذلك الزواج، بل حرَّمه تحريماً مطلقاً على التأبيد وإلى نهاية الدوران، بسبب توافق الدماء للأخ وأخته بعدها، والضعف الشديد للميول والغريزة الجنسية بين الأخ والأخت، لتوافق الدم والتكوين.

ولتوضيح تلك العلاقة الجنسية بين الزوجين، وأمر فتورها بسبب توافق الدم وتشابهه، ثم العكس قوة تلك العلاقة بسبب اختلاف الدم وتباينه، نضرب مثال **(قطبي المغناطيس)**، فعندما نقرِّب قطبي مغناطيسين متشابهين، أي كلاهما سالب أو موجب فإننا نراهما متنافرين لا يجتمعان.

أما عندما نقرِّب قطبين متباينين، أي أحدهما سالب والآخر موجب، عندها يكون التجاذب والاتحاد.

وكذلك في السالب والموجب في أسلاك الكهرباء **(بارد وحامي)**، يجري التيار الكهربائي وينتج الضياء والحركة والحرارة.

ذلك لأن الإنسان في تركيبه الجسمي جزء من هذا الكون المادي، يخضع لنفس القوانين والعوامل المادية، والنفس موجودة في القفص الصدري، وترسل أشعتها سارية في الأعصاب المشرفة على أجهزة الجسم كلها، والآمرة الناهية على تلك الأجهزة تؤثر وتتأثر بها.

فالنفس تتأثر بالبيئة والمجتمع، والأطعمة والأمكنة، وتنعكس عليها فالتقارب والتنافر بين الجنسين، يعتمد اعتماداً كليّاً على مكونات الجسم الذي تقطن النفس فيه والأمثلة المادية تبين نوعية العلاقات الجنسية الزوجية من حيث نجاحها ونتاجها من البنين والبنات، والميول من حيث قوتها وضعفها لذا نوَّع أبونا آدم عليه السلام الأطعمة لبنيه بأمر من الله، حتى تمَّ النجاح الزوجي، ثم ألغي لعدم التكليف بنوع واحد فقط من الطعام. وقد فصَّل تعالى قضية التحريم هذه بالآية الكريمة: **{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ..}**[٦٥]. وكما هو معلوم طبياً في علم الوراثة أن زواج الأقارب يؤدي إلى أمراض وراثية غريبة تكون أحياناً عديمة الشفاء.. وأحياناً إلى طفرات وراثية وتشوهات خلقية، لذا ينصح الأطباء بزواج الأباعد، الذين لا تربطهم بالإنسان الذي يريد الزواج أي صلة قربى قوية.

ونحن نجد في الآية الكريمة السابقة أنه قد حرِّمت الأخت من الرضاعة أيضاً، وذلك لما في تشابهٍ بين دمها ودم أخيها بالرضاعة، فتم تحريم الزواج منها.

---

[٦٥] سورة النساء – الآية:٢٣.

كما حرِّمت الأم بالرضاعة، لأن جسم هذا الطفل الرضيع تأسس قسم كبير من بنائه الجسمي، وقسم مهم من تركيب دمه من حليبها، الذي كان طعامه تقريباً كله مقتصراً على حليبها في الطفولة، وصار بينه وبين أمه وأخته بالرضاعة قربة دم وتركيب جسمي لا نسب، فهما لذلك محرَّم زواجهما.

إذن أمر الزواج من الإخوة سار ضمن حكمة بالغة لأبناء مختلفي التركيب والدم بزمن سيدنا آدم عليه السلام كونهم من بطون مختلفة البناء الجسمي لاختلاف الطعام الذي تناوله الجيل الأول، والطعام الذي تناوله الجيل الثاني كليّاً، فحدث اختلاف كبير في التركيب البنيوي. وصار كل منهما جديداً بالنسبة للآخر، فأمكن التجاذب بين الطرفين المتزوجين للضرورة، وأمكن وقوع الميل الجنسي، وخرجت مادة الحياة للطفل الجديد من كافة خلايا وأعضاء الجسم، فكان بناؤه الجسماني صالحاً للحياة متيناً طبيعياً لا تشويه فيه ولا ضعف فزالت الضرورة، وعادت الأمور إلى مجاريها بدون هذا التكليف للطعام، وهذا حدث لمرة واحدة فقط، وعلى يديْ أبي البشرية سيدنا آدم النبي الرسول عليه السلام، لكونه أول الخلق، ولا يوجد على سطح الأرض مخلوق بشري سواه وزوجه أم البشر جميعاً وسيدتهم عليها السلام.

فهذا أمر خاص ببدء الخلق، ثم حرَّم الله تعالى من بعد ذلك الأمر، إلى نهاية الدوران، تحريماً على التأبيد.

هل مصر هبة النيل أم هبة السماء؟!

حصل القحط بسني سيدنا يوسف عليه السلام ثم بسني فرعون والنيل دائم الرفد والعطاء لكنه لم يعطِ شيئاً بدون ماء السماء.

نهر عظيم، كمنت منابعه في المرتفعات العالية شرقي القارة الأفريقية، لينتهي انصباباً في البحر الأبيض المتوسط، قاطعاً مسافات شاسعة تنوف عن الستة آلاف كيلو مترٍ، مشكلاً حوضاً مائياً بمساحة ثلاثة ملايين من الكيلومترات المربعة، ماراً بيوغندة والحبشة والسودان ومصر، بغزارة تقارب المليون متر مكعب باليوم إنه أطول أنهار العالم، ألا إنه حقاً بحر.

لو كان حوض الأبيض المتوسط فارغاً من المياه، وجُمعت المياه التي تجري متدفقة طوال العام في نهر النيل، وملئت في هذا الحوض البحري الجاف، لأعادت البحر ممتلئاً بالمياه كما كان، بل لزادت عليه، فيعتبر النيل والحالة هذه، بحراً خضمّاً من المياه العذبة.

وتحمل مياهه كميات كبيرة من المواد المترسبة الآتية من مجاريه العليا، ليلقي بها على ضفاف مجراه، طوال موسم الفيضان، تكون هذه الرسوبيات سبباً في خصب وغنى أراضي ذلك الوادي، واديه السعيد، وهي مواد طينية تنشأ من تحاتِّ الصخور في هضبة الحبشة والمجرى الأعلى للنهر، وعندما تضعف سرعة جريان المياه، وخاصة في المناطق السهلية القليلة الانحدار، يبدأ النهر بالتخلي عن حمولته من جلاميد وحصى ورمال، لتبقى الذرات الناعمة الدقيقة من التراب والطين عالقة بالمياه حتى قرب مصبه، مشكلة الترب اللحقية الخصبة، وهي التي تشكل القسم الأكبر من أراضي دلتا النيل.

ولحاجة الإنسان إلى المياه سعى للحصول عليها طوال العام، وبرزت إمكانية الاستفادة من الري وتأمين المياه اللازمة للزراعة في غير أوقات الفيضان.

لذا شُقت الترع والأقنية، وجُرت المياه إلى أماكن لم تكن تصلها من قبل، فأضحت أراضٍ زراعية كثيرة تنعم بالمياه، في أوقات غير أوقات الفيضان.

تُرى مع كل هذه الإمكانيات والجهود المبذولة، وكل هذا الكم الهائل من المياه العذبة، هل أجدت نفعاً حين انقطع ماء السماء؟!

عجباً لِمَ لَم تُجْدِ؟! فلا نبت ولا زرع ولا ثمر وذلك عندما أخذ الله:

{..آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}[٦٦]، هل جفت مياه النيل وأصبح ذلك اليم العظيم ساقية أو دون ذلك؟ طبعاً لا.

إذن: ما السر في عدم جدوى هذا النهر العظيم، الذي أطلق عليه تعالى كلمة (اليم) لشدة غزارته، في سني الجفاف؟!

وكذلك ما حل في عهد سيدنا يوسف عليه السلام **(عزيز مصر)** من قحط شامل ومحل كامل، بعد أن لبث في السجن بضع سنين واستكمل نضوجه وأصبح أهلاً للإرشاد، أراد تعالى أن يخرجه من السجن وأن يبوّءه المرتبة العالية التي أعدها له والتي كان عليه السلام حقيقاً بها وأهلاً لها.

وقد أجرى تعالى ذلك بصورة تظهر معها للناس أهلية هذا النبي الكريم لتسنم هذه الوظيفة، والقيام بأعباء تلك المهمة (رئاسة الوزارة ووزارة المالية).

---

[٦٦] سورة الأعراف ـ الآية:١٣٠.

تم ذلك حين رأى الملك في نومه رؤيا أهمه أمرها جداً، وما استطاع الملأ حوله من مستشارين ورجال دين أو كهنة، أن يجدوا لها تأويلاً.

ترادف العلماء المفسرون لتأويلها فعجزوا وغدوا حيارى.

{وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ..}: ضعفاء. **{..وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ}**: إن كنتم تستطيعون التوصل للحقيقة التي ترمز إليها الرؤيا. **{قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ..}**: جمع أحلام، خربطة منامات: **{..وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ}**: لا علم لنا.

هنالك وفي غمرة هذا الهم المحدق بالملك، قام رجل كان في السجن مع سيدنا يوسف عليه السلام، وذكر للملك ما وقع من صدقه عليه السلام في تعبيره وتأويله للرؤيا التي رآها ذاك الرجل، إذ رأى أنه يعصر خمراً وكيف وقع عليه ما نبأه به من خروجه من السجن وعودته للبلاط الملكي، والعمل بعصير الخمر للملك ذاته، وكيف تنبأ بصلب الذي كان معه وأكل الطير من رأسه، ووقوع كل ذلك، دلالة على عظيم علم سيدنا يوسف عليه السلام، ثم استأذن بالذهاب إلى السجن ليأتي بالتأويل الصحيح لرؤيا الملك التي أهمته: **{وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ..}**: بعد أن سأل الملك أمةً من المفسرين وبعد أن عجز هؤلاء الناس عن تأويل المنام: **{..أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ}** إلى يوسف في السجن. **{يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ}**: وقد فهَّم الله تعالى سيدنا يوسف ما تعنيه هذه الرؤيا، وراح سيدنا يوسف بدوره، يعلم الرجل بتأويلها.

{قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً..}: بصورة متتالية ومتواصلة وبصرف غاية الجهد: **{..فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ..}** لأن القمح إذا ظل في سنبله لا يتسرب إليه السوس وغيره من الحشرات ولو

بقي في سنبله عشرات السنين فلن يسوس أبداً[٦٧]. **{ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ..}**: لا مطر فيها. **{..يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ..}**: من السنوات الخصبة **{..إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ}**: تبقون للبذار: **{ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ..}**: بمطر غزير: **{..وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}**[٦٨]: يستنفدون كل ما عندهم. فلا تبقى عندهم مؤونة إذ لا يبقون شيئاً.

وذاك ما حصل فعلاً، فلقد حُبس المطر بعد سبع سنين خصبة ترفل بالعطاء والنماء بهطول الأمطار الغزيرة، ثم تلتها سبع سنين ولم تنزل قطرة ماء من السماء ولم ينبت زرع إطلاقاً ولم يمتلئ ضرع. والناس آنذاك يقدمون إلى مستودعات المملكة لأخذ الميرة والمؤونة... طوال تلك السنوات السبع العجاف. وغدا يوسف عليه السلام وزيراً للمالية مع رئاسة الوزارة، فأصبح: **{..عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ..}**[٦٩]: حفيظاً عليها، عليماً بتدبير شؤونها.

كانت الأعطيات من مخزون القمح التي توزع تحت إشراف ومشاهدة سيدنا يوسف عليه السلام بالحق والاستحقاق، فلا ظلم ولا محاباة ولا اختلاسات، فالنقص مهما يكن بوجود مستودعات ضخمة لمنتجات سبع سنين خصبة، لا يظهر طيلة أربع أو خمس سنين ولكن في الأيام الأخيرة من السبع العجاف، قد يكون فقدان حمل بعير، سبباً بهلاك عائلة بأسرها جوعاً.

لهذا طلب سيدنا يوسف عليه السلام هذه الوظيفة، وزارة المالية، لعلمه بالخطر المحدق الآتي بالسبع سنين الشداد التي لا مطر فيها،

---

[٦٧] ولقد قمنا بحفظ القمح (٣٠) سنة كاملة بسنبله، فلم يفسد أبداً، وبقي صالحاً للأكل، ولا يزال القمح لدينا حتى الآن، وهذا دلالة على مصداقية طريقة الحفظ الواردة، ومن أصدق من الله قولاً.

[٦٨] سورة يوسف ـ الآية:٤٣-٤٩.

[٦٩] سورة يوسف ـ الآية:٥٥.

فحافظ على أرواح الناس أن تزهق، بأمانته على عدم التفريط بسنبلة قمح.

وبعد أن استنفدوا كل ما لديهم من مؤونة، أتاهم الله بالمطر غوثاً لهم، فنبتت مزروعاتهم مكللة بالعطاء، ونمت وازدهت الأشجار بالأثمار، وأعشبت النجاد والوهاد، لقد أتاهم الله بالغمام يحيي به ما قد مات، ويردُّ به ما قد فات، نما الزرع وامتلأ الضرع، وانتشى العباد، وأحيا ماءُ المطر الميت من البلاد.

ولكن هنا يكمن التساؤل والاستغراب: لماذا أجدبت أرض مصر سبع سنوات عجاف وفيها النيل العظيم ومياهه الغزيرة؟! الحقيقة تظهر وتتجلى من قوله تعالى: **{وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}**[٧٠].

فإن لم تنزل الأمطار في البلاد ولو لمرة واحدة في العام، فلن تثمر النباتات والأشجار، وإن كانت نضرة بخضرة الحياة (مسقية بماء بئر أو ماء نهر)، ومهما كرست الجهود لاستجرار المياه من الأنهار وحفر الآبار، دون مطر لن ينعقد الثمر.

فمن آياته تعالى لك أيها الإنسان: **{..وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً..}**: لا حياة فيها ساكنة، فإذا أنزل سبحانه مطر السماء: **{..فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}**[٧١]. ودون هذا الماء السماوي، إن اهتزت الأرض لماء أرضي وإن ربت، لكنها لن تنبت من الأزواج المثمرة البهية، أي لن يحصل الإلقاح وعقد الثمار، فلا حبوب ولا ثمرات.

إذن فعلى هذا الماء المنزل من السماء تتوقف الحياة، وهل من أحد غيره تعالى ينزل المطر المحمل بالحياة؟ فلولا المطر لما كانت

---

[٧٠] سورة الذاريات ـ الآية:٢٢.
[٧١] سورة الحج ـ الآية:٥.

الثمار والحبوب ومنتجات الفواكه والخضار ولو توفرت مياه الأنهار.

هكذا رتب تعالى ترتيباً كونياً كاملاً، يتحقق به النتاج المثمر للنبات، حيث ينزل تعالى الأمطار، وبقطراتها تنزل الحياة (الحيوينات) ضمن مقادير معينة، قدَّرها تعالى لكل منطقة وكل مكان، حسب الاستحقاق، من بعد أن يسوق السحاب بالرياح اللواقح، تلقح السحب ببعضها البعض، فترى الودق يخرج من خلالها بلطف ورقة ودقة[٧٢]، إنه الودُّ الإلّهي لعباده، بمقاديره الدقيقة.

إذن: فهذا الماء المنزل من السماء يكون به إخراج الحبوب والنبات والأثمار، وبهذا الماء المنصب تُحتوى أنواع الحيويات المختلفة، التي تكوِّن التركيب الأساسي للنباتات والأشجار حتى يحصل الإنتاج رغم اختلاف هذه الثمرات وتمايزها بعضها عن بعض، من حيث تركيبها وطعمها ولونها، وشكلها وحجمها ومنافعها. فمن الذي وضع في ماء المطر ما وضع من حيويات؟!

ولكن الله تعالى يبتلي عباده عند اقترافهم الأعمال السيئة بحبس المطر، وبالتالي بنقص الثمرات، فتحبس البركات، وتغلق خزائن الخيرات: **{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}**[٧٣].

مداواة منه تعالى لهذا الغافل عن ذكره سبحانه، ليقوده إلى الإقبال عليه بوجهة صادقة، استئصالاً لجرثوم الخبث من النفس وتطهيراً لها من تلك النواة التي تسبب تولد الشهوات المحرمة.

فالحرمان من المطر جعله تعالى لتخاف العباد، وتخشى الحرمان من الرزق ليتوب تائب إلى ربه، ويقلع مقلع عن ذنبه ويتذكر متذكر

---

[٧٢] لطفاً انظر كتاب البحوث المجيدة للعلّامة الكبير محمد أمين شيخو بحث (الودق).

[٧٣] سورة السجدة – الآية:٢١.

ما غفل عن ذكر ربه، وقد جعل تعالى التوبة والإنابة والاستغفار، لشفاء النفس من العلل والأمراض، وسبباً لإدرار الرزق، ورحمة منه للخلق: **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ..}**[٧٤] و: **{مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ..}**: زكيتم عن الثمرات: **{..وَآمَنتُمْ..}**[٧٥]. **{وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}**[٧٦]: قاموا بكل الوسائل والأبحاث والتقنيات وحفروا الآبار، ظناً منهم أنهم استغنوا عن ماء السماء، فعادوا خاسرين بعد أن وقفوا على حافة الهلاك، فلم يبق زرع ولا ضرع ولا حتى حشرة صغيرة.

فاستغاثوا الله فأغاثهم بماء ملأ الوهاد، وأصاب النجاد وعادت الحياة.

لقد صب بالماء إكسير الحياة صباً وإذ بالأرض بعد أن كانت هامدة خالية من جوهر الحياة، قد اهتزت طرباً بما أغدق عليها تعالى بالماء من حياة وأنبتت من كل زوج بهيج، وإذ بها بعد أن كانت جرداء قفراء، أضحت عامرة بالخيرات تضج فيها الكائنات، وتكتسي بالمروج الخضراء والكلأ، وتنبت فيها الجنات المنوعات دانية قطوفها على البشر بخيراتها وثمراتها المختلفة الألوان والأشكال، متنافسة بالطعوم والمذاقات الشهية، المعرِّفة بكرمه تعالى، والدالة على لا إلَه إلاَّ الله.

وإليك قصة واقعية جرت في عهد وحدة سوريا ومصر أثبتت ما قلناه: حينما قام بعض السادة الوزراء هداهم الله يرفضون ماء السماء نظراً لما ابتدع الغرب من آلات وحفارات تحفر وتنقب في الأرض ما يزيد عن (٣٠٠٠) متر بحثاً عن الماء.

---

[٧٤] سورة الأعراف – الآية:٩٦.
[٧٥] سورة النساء – الآية:١٤٧.
[٧٦] سورة الشورى – الآية:٢٨.

عندها وبعد إعلانهم على الملأ قولهم: (استغنينا عن ماء السماء) اعتزازاً بما استوردوا من آليات التنقيب الحضارية، حُبس المطر عن منطقة حوران[٧٧] الحبيبة طوال عهد الوحدة وحتى الانفصال لمدة ثلاث سنوات عجاف مثل سنيّ يوسف منذ عام (١٩٥٨) إلى نهاية عام (١٩٦١)، لم تهطل قطرة ماء من السماء، فما أفادتهم هذه الحضارة وحفّاراتها الضخمة التي تحفر لعمق (٣٠٠٠) متر شيئاً، بل غار الماء فلم يبق أثر له، وما أغنت عنهم، وتشرد الرجال هنالك إلى الشام والى بقية الأقطار، ابتغاء رزقهم وذويهم كي لا يموتوا جوعاً حين حبس ماء السماء.

بدأت وزارة الزراعة ووزارة الشؤون القروية يومياً بإرسال العشرات من صهاريج الماء للشرب فقط، كيلا يموت الناس هناك عطشاً، ولكن أحد المزارعين شغَّل محركه المائي وعجباً خرج الماء بما يكفي أرضه الشاسعة فقط، لكن وحين آن أوان القطاف لم يجد في سنابل قمحه حبة قمح واحدة، فأخذ يقلِّب كفيه من الحزن على ما أنفق، ولم يكسب إلا سنابل لا قمح فيها، ولو هطل المطر مرةً واحدة بالسنة لامتلأت السنابل بالحب، لكنها لم تمطر، فلم تثمر ولن تثمر ولو سقيت بمياه النيل الخضم.

وهكذا نستطيع أن نفهم وندرك جواباً للتساؤل الذي طرح نفسه علينا، فنعلم أنه لم يكن ماء نهر النيل العظيم ليحل مشكلة أثناء سني المحل في عصر سيدنا يوسف عليه السلام **(سبع سنوات من الجدب وانقطاع المطر)**، ولولا الترتيب الذي أوحاه تعالى لسيدنا يوسف عليه السلام في تأويله لرؤيا الملك لهلك القوم، ولم يُجدِ معهم ماء النهر في حل المشكلة، وكذلك في عصر سيدنا موسى عليه السلام عندما كان تعالى يشدِّد على قوم فرعون بالقحط وانقطاع المطر،

[٧٧] حوران: سهل يقع جنوب سوريا في محافظة درعا يشتهر بأراضيه الزراعية الخصبة.

يركضون إلى السيد العظيم موسى عليه السلام، ليدعو لهم ربه أن يرفع عنهم هذه الشدة، بالرغم من نهر النيل الدفاق الغزير.

فقد أنقذهم سيدنا يوسف وموسى عليهما السلام من الموت المحتوم، فمعنى ذلك أن مصر الشقيقة هبة السماء وليست هبة النيل، حتى النيل في أصله هبة السماء من القطب الجنوبي[٧٨].

فماء المطر فيه سر عظيم، ولا يمكن لمياه الأنهار أو الآبار أن تغني عنه، إذا لم تهطل السماء، فإن هطلت السماء ولو لمرة واحدة في سني القحط، فإنها تُجدي مع وجود مياه الآبار والأنهار، أما إن لم تهطل، فلا جدوى رغم مياه الأنهار والآبار، وإن نبت هيكل الزرع، فلا ثمر ولا حبوب ولا فاكهة ولا غذاء.

إذن: الخير كل الخير جعله تعالى من السماء، وهذه المخلوقات التي يخلقها تعالى لنا، من ثمار وحبوب وبقول وغيرها من الفواكه والخضروات، مقسومة للأرض بمياه السماء التي تعج بالحيويات والحياة في كل عام.

حقاً: **{وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}**[٧٩].

---

[٧٨] لطفاً انظر كتاب «مصادر مياه الينابيع في العالم» للعلامة الكبير محمد أمين شيخو.

[٧٩] سورة الذاريات ـ الآية:٢٢.

النبي الأمي

الأمي أي: مَن تؤمُّ له الخلائق كلُّها، وبهذه التبعية لإماميته الكبرى، تتم الشفاعة فالجنَّة. أجمع الجهابذة العلماء بل وأساطين اللغة العربية القاصي منهم والداني، من المتقدمين والمتأخرين بأن النبي الأمي ﷺ أي: الذي لا يجيد القراءة والكتابة، فلا تكاد تفتح معجماً أو تفسيراً إلاَّ وتجد فيه هذا المعنى. ولكن عجباً؟! ذلك الرأي والإجماع.

القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا تفنى غرائبه والوقوف على درجة واحدة، أو التقليد الأعمى نتاجه الفشل وضياع المسعى حيث التقييد وفقدان الإنسان لملكات ذاته، والإنسان كائن مفكر، ولذا خصنا تعالى بقوله: {**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**}[٨٠].

وهل أوصل الأمة الإسلامية إلى هذا الذل والجهل، إلاَّ التقوقع والخضوع للهالة القدسية التي ألبسها كتبة الدُّسوس لكتبهم التي نسبوها لأئمَّة هم منها براء.

فكلمة: **(الأمي)** مصدرها **(أمَّ)**، ومنها الأم الوالدة التي يؤم إليها ولدها باحتياجاته، ومنها **(الإمام)** الذي يأتمُّ به المصلّون، أو رئيس القوم؛ يعودون إليه في أمورهم، أو الخليفة، أو قائد الجند، أو دليل المسافرين: وكلها تعني (المرجع) الذي يُؤمُّ إليه بالمقصد المشترك. والتيمُّم: التوجُّهُ للتراب الطهور عند فقدان الماء أو ضرره على المتوضئ المريض.

فالأمي: لغةً نسبة إلى الأم أو الأمَّة، فأمَّ يؤم أمّاً وتأمم.

---

[٨٠] سورة النساء – الآية:٨٢.

وائتمّه: قصده، وأمَّ القوم إمامة؛ وإماماً بالقوم: تقدمهم بمقصدهم فكان إمامهم. اليهود قالوا: {**..لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ..**}[٨١].

فقولهم ليس علينا في العرب الذين أمُّوا لمحمد فتبعوه، أيَّ مؤاخذة وما علينا بأس، أي: افعلوا بهم ما يحلو لكم من سلب وفحش فهو حلال عليكم يا يهود، لأنهم عرب أمُّوا لمحمد وما أمُّوا لعلمائنا وأحبارنا، وبذا جعلوا العرب كلهم ومنهم أهل مكة والمدينة والطائف كلهم لا يقرؤون ولا يكتبون! كيف كان كتبة الوحي والخلفاء يكتبون؟ حقّاً لقد ضيَّقوا واسعاً. إذن: فعلى كافة الوجوه (الأميين): تعني الذين أمُّوا لسيدنا محمد ﷺ، أي تبعوه حيث يمتدحهم تعالى بهذه الصفات بقوله:

{**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**}[٨٢].
قالوا أن **(الأمي)** هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، فما علاقة أمَّ يؤم بالقراءة والكتابة؟ أي بـ: يقرأ ويكتب، أوْ لا يقرأ ولا يكتب، ومن أين خرقوا هذا المعنى البعيد، واللغة العربية أبداً لا تحتمل هذا التعسُّف اللغوي[٨٣]؟

---

[٨١] سورة آل عمران – الآية:٧٥.
[٨٢] سورة الجمعة – الآية:٢.
[٨٣] ومن الجدير ذكره أنه جاء في لسان العرب: أن معنى كلمة (الأمي): العيي الجلف الجافي القليل الكلام.. وفي موقع آخر (وقيل له أمي، لأنه على ما ولدته أمه من قلة الكلام وعجمة اللسان)، ولمعرفة المراد من ذلك التعريف، نعود للمفردات نفسها في ذلك القاموس الشهير: العيي: من تكلّف عملاً فعيي به وعنه إذ لم يهتد لوجهة عمله، وعجز عن الأمَر ولم يُطلق إحكامه. الجلف: أي أن جوفه هواء لا عقل فيه، وفي الحديث الشريف «فجاءه رجل جلف جاف»، الجلف: الأحمق. الجافي: تارك البر والصلة، خرق في المعاملة والسّورة على الجليس.
عجمة اللسان: مبهم الكلام لا يتبيّن كلامه (يتأتئ ويتلعثم).
هل هذه الصفات التي تميز بها سيدنا محمد ﷺعن كافة العالمين؟!

إذن: كلمة **(أمَّ)** أي: تبع غيره، فأمُّوا مع الإمام، أي تبعوا الإمام في الحركات والسكنات والتسليم بالصلاة.

و**(أمَّ الكعبة)** أي: ذهب تجاهها وإليها، وليس معناها قرأ الكعبة أو كتب الكعبة، فهي ليست من القراءة والكتابة بشيء.

والإمام هو الشخص المتعلم والقارئ المجيد للقراءة، وعادة يكون أقرأهم وأفقههم، فما وجه العلاقة هنا بأن الإمام هو أمِّي، بمعنى أن الإمام هو الذي لا يقرأ ولا يكتب؟ هل هناك بمساجد الأرض إماماً لا يقرأ بصلاته، حتى حمَّلوا المعنى من عدم القراءة ما لا يحتمل، وحتى أشاعوها للناس بمعناهم الخاطئ، فتبعهم الناس تصديقاً، فهل نرضى أن نكون مثل من يقلِّد ولا يفكِّر؟! بل: **{قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**[٨٤]. ثم هل الأُمّ هي التي لا تكتب ولا تقرأ، أم أنها التي يؤمُّ إليها طفلها بكل طلباته وحاجاته؟!

والأميُّون في الصلاة هم الذين يؤمون للإمام بالاتباع، فإن رفع يديه وكبَّر تبعوه ورفعوا أيديهم وكبَّروا، وإن ركع ركعوا بعده وسجدوا بعده، ولا وجود لمعنى **(للأميين)** أبداً بعدم الكتابة والقراءة، فاليوم كافة الأمهات والمصلين تقريباً يقرؤون ويكتبون، وهذا ينسف معناهم المختلق إطلاقاً بأن معنى الأميين أي الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، لكنه التقليد جعل الناس ينقلون هذا المعنى الخطأ والذي لا أصل له أبداً.

هل لهذا كان ينتظر أهل الكتاب ظهوره في المدينة؟!!

[٨٤] سورة يوسف – الآية:١٠٨.

كلمة لا يكتب ولا يقرأ وردت في آيةٍ ثانية لا علاقة لها بالأمي وهي: **{وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}**[٨٥].

وهذه الآية تبيِّن أنه ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، ولا علاقة بكلمة **(أمِّي)** أبداً.

كلمة: **(أمي)** المتعلقة بنبينا ﷺ تعني فقط من تؤم إليه كافة الرسل والنبيين والمؤمنين بالعالَمين.

يتساءل الإنسان والناس في كل زمان، كما تساءلت قريش قديماً ومن عاصرها من الأقوام والقبائل من أين جاء هذا الرجل العظيم والسيد الكريم رسول الله ﷺ بما جاء به، من بليغ القول ورفيع الدلالة، وسامي الأخلاق، وعالي الشمائل والصفات، يفوق بشجاعته الصناديد والأبطال، ويبذ برأيه الثاقب وحسن تدبُّره الأمور أعظم الساسة وأكبر الحكماء، ويبدو في علمه كأنه البحر الزاخر لا يقف عند حد وليس له انتهاء، ويسمو بحلمه ورفقه ولطيف معاملته، فوق كل ذي مكانة ومقام، فليس يستطيع أن يدانيهِ بشر، ولا أن يدرك سموه وكماله إنسان. رجل نشأ بأرض مقفرة لا أثر فيها لمعهد من معاهد العلم، وفي جوٍ لا مدارس فيه ولا علماء، فيفوق في علمه كل عالم، ويسمو بخلقه العالي على كل ذي خلق فاضل، ويقارع بالحجة الدامغة كل معارض ومعاند، فتتحطم أمام حججه كل مناقشة لها صلة بباطل وتزهق المعارضة؛ وينبلج الحق ويلمع كالصبح السافر والكوكب الساطع في الظلام المدلهم الحالك، فمن الذي بث في نفسه ما بث من سمو، ومن أين له ذلك المقام وتلك العلوم والأحكام؟

---

[٨٥] سورة العنكبوت – الآية:٤٨.

ولم يتعلم بالجامعات، وما ارتاد المعاهد؟! وأيمُ الحق تلك هي العظَمةُ بقوله تعالى: {..**وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ..**}[٨٦].

فكم وكم تعلَّم علوماً طبقت الأرض والسموات وحوت كافة المكرمات تعلمها ﷺ من حضرة الله! وحتى لم يقسم ربُّ العزَّة قسَماً بسواه!

«**فمن وجد الله وجد كل شيء ومن فاته، فاته كل شيء**». وكفى بالله معلِّماً لرسوله، فهو ﷺ يؤم بنا بالصلاة لربنا وإلى الجنات.

الدستور الإلَهي:

وهذا القرآن الكريم (الدستور الإلَهي) موجود بين أيدي العالم أجمع، علماء وفلاسفة جهابذة وفقهاء، وفطاحل أذكياء؛ حملة شهادات عليا بمختلف الدراسات هل صنع أحدٌ به ما صنع سيدنا محمد رسول الله ﷺ وخرَّج أبطالاً عظماء رضوان الله عليهم أجمعين؟

فالأجدر بالإنسان أن يسير بالحكمة لكي يفقه ما يقول، ثم إن الآيات تشير إلى ذلك المعنى السامي العظيم (للأمي): الذي تؤم له الخلائق البشرية كلها.

فهذا الرسول: {..**النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ..**}[٨٧]: عند اليهود والنصارى، هل على زعمهم كان مكتوباً في التوراة والإنجيل الشخص الذي لا يقرأ ولا يكتب تخفيضاً لشأنه؟!

أليس ذلك دلالة لهم باتباعه والائتمام به؟! ثم إن الله تعالى يأمر رسوله موسى عليه السلام بالآية: {**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي**

---

[٨٦] سورة البقرة ــ الآية:٢٨٢.

[٨٧] سورة الأعراف ــ الآية:١٥٧.

وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[٨٨].

فها هو سيدنا موسى عليه السلام يدعو قومه للإيمان بالله وأن يؤموا (اليهود) إلى رسوله: (الأمِّي) عند ظهوره لأنه على ذاك الزعم لا يقرأ ولا يكتب!

ولعل سائلاً يقول:

أن الآية (٥) من سورة الفرقان: {**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**}: فيها إشارة إلى اتهام قريش للرسول ﷺ بكتابته القرآن، وكأن هذه الآية دليل على أن رسول الله كان يجيد الكتابة وبالتالي القراءة: فكما ذكرنا القرآن بالترابط يُفهم فالآيات تقول: لما جاء رسول الله ﷺ وأنذر الناس:

{**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ..**}: افتراه على الله: {**..وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ..**}: أصحابه: {**..فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً..**}: لأنفسهم: {**..وَزُوراً**}: كذباً، فماذا قالوا كذباً ومناجزة: {**..أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا..**}: جعل أصحابه يكتبونها له: {**..فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**}: تتلى عليه ومن ثم يسردها صباحاً ومساءً على أصحابه وعلى الناس.

ثم إن رسول الله ﷺ أمَره تعالى أن يفاتحهم بما قالوا في سرِّهم ما بين بعضهم وكشف لهم أحوالهم. فكلمة: {**..اكْتَتَبَهَا..**} تعني: كتبها له أصحابه ﷺ وليس هو الكاتب بذاته، فاكتتبها تعني كتبها له غيره وهي غير كتبها التي تعني كتبها بيده، والآية أتت: اكتتبها فلا خلاف. وهذه الآية شرح للآية: {**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً**

[٨٨] سورة الأعراف – الآية:١٥٨.

لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ}[٨٩]، والتي تنسف ادِّعاءهم وارتيابهم وتثبت أن كلام رسول الله ﷺ هو كلام الله وليس كلام بشَر.

لا من علوم الشرق ولا الغرب ولا يستطيع بشر الإتيان بمثلها ليكون هناك اكتتاب لها بل القرآن قول رسول الله ﷺ عن حضرة الله معجزة الله للعالَمين، وفيه خيرهم أبد الآبدين.

وصدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ونحن على ذلك من الشاهدين

---

[٨٩] سورة العنكبوت ــ الآية:٤٦ـ٤٩.

هل السعادة حقاً حلم لا يتحقق؟!

بلغت الحضارة في عصرنا العتيد أوج التقدم والرقي العلمي، بما أحدثته الثورة التقنية من اختراعات وابتكارات، حققت لأربابها ما يطمحون إليه من أغراض ووسائل، تؤمن لهم معيشة أكثر رفاهية مما سبق، وذلك باختلاق النظم والقوانين، بغية تسخير موارد الطبيعة، لتجود لهم أكثر مما كانت عليه، وتبديل أنماط حياتهم نحو الأفضل والأرقى، فكان اختراع السيارات والطائرات واكتشاف الكهرباء والإلكترونيات، وبناء القصور الشامخات، وتشييد المصانع الضخمة بأكبر قدر من التكنولوجيا.

كل هذا سعياً وراء حياة يَهنَؤون فيها بالعيش الرغيد والسعادة المأمولة.

إلا أنه رغم جميع السنن والخطط التي سلكوها، والوسائل التي أحدثوها، بقيت حلقة مفقودة في سلسلة حياتهم، أورث ضياعها قلقاً نفسياً حاداً، عانت منه البشرية قاطبة، فرغم العلم الحديث المتطور، الذي حلَّق فوق بلادهم بقوانينه الجبارة وكشوفاته وتقنياته، كانت السعادة غائبة عنهم، والسرور القلبي قد انعدم لديهم، بسبب الحجاب المادي الكثيف الذي ألقى ظلاله القاتمة على الأنفس، فسدَّ عنها النور والسرور، والحياة الإلّهية القلبية والسعادة.

عندها أخذ البعض يتساءل عن سبيل لبلوغ السعادة المرجوة، وهل يمكن السيطرة بالقوانين المادية على جوهر السعادة للوصول بالأصول لتحصيلها علمياً، والسيطرة عليها ونوالها؟

هل من الممكن إخضاع السعادة لتلك القوانين العلمية الجبارة، فتأتيهم صاغرة خادمة طائعة بين أيديهم؟! فيتمتعون بالسعادة المأمولة، وتغدو الأرض جنَّة!

فريق علمي (يبحث في السيطرة على السعادة) بالقوانين المادية وذلك في النصف الأول من القرن العشرين:

لأجل هذا الهدف، وحبّاً للاكتشاف والنوال للسعادة وبحثاً عنها، قامت هيئة باحثة دارسة ضمَّت فريقاً بريطانياً حوى كبار العباقرة والجهابذة والعلماء والفلاسفة وأطباء النفس المتخصصين ليدرسوا هذه القضية المهمة (السعادة)، ويطلقوا سهماً علَّهم يصيبوا به هدفهم الذي كل ما سواه إنما اخترع لأجل تحصيله.

أخذ الفريق يقلِّب طبقات وشرائح المجتمعات البشرية، رفيعها ووضيعها، فقيرها وغنيها، يتفحصها بدقة واهتمام (يسبر مدى السعادة المكنونة في طياتها، وعند من تتحصر مادة السعادة، ومن هم مالكوها، وكيف السبيل للوصول إليها؟).

كل ذلك ليقرروا منهجاً يحتذي المجتمع بقوانينه، ويكون لهم مرشداً ودليلاً لبلوغ مسرات مطلقة بديمومة مدى الحياة، دون نغص أو كدر، فيمتطي الجميع سفينة السعداء، ويخوضوا بحار الصفاء والهناء، ليسعدوا بحياة ملؤها الحبور والسرور، فنتقلب بأحضان النعيم من جميل لأجمل، ونعرج من حسن لأحسن، ومن طيب لأطيب، ببدع لذيذة ممتعة جذابة خلابة، تأخذ بمجامع القلوب وتسلب الألباب، وتسحر الأفئدة، فتمتصُّها بكليتها بغبطة وهناء، وأفانين متزايدة متعاظمة، وذلك ضمن قوانين وقواعد صارمة في الدقة، تُتَّبع لنيل سبل السعادة.

كثيرون هم أولئك الذين يسعون نحو الحياة الأفضل، ليكونوا فيها أسعد حالاً، وأهدأ بالاً، وأكثر استقراراً وطمأنينة، وبسطاً وهناء، إذ أن السعي نحو الكمال بتحقيق السعادة ضمن قانون شامل تخضع له البشرية قاطبة، وتتميز به عن سائر المخلوقات، هو الهدف المنشود.

في سماء الأغنياء المترفين:

وحيث أن الأكثرية الساحقة من الناس يحسبون أن السعادة الكاملة والحياة الطيبة يحققها المرء إذا أصبح ذا مال وفير، وغنى كبير، وقصر رائع مهيب، وممتلكات تنحني لها الرؤوس إكباراً، لذلك تراهم يتبارون ويتنافسون في جمع أكبر ما يمكن من الأموال والكنوز، ويبذلون قصارى الجهد في سبيل الحصول عليها، من دراسات ومشاريع وتجارات، فيركبون المخاطر والمشاق، ويضربون في مشارق الأرض ومغاربها، برّاً وجوّاً وبحراً لنيل شهادات، بغية قطف ثمار السعادة بنتاجها المعنوي والمادي، أو عقد صفقات تجارية رابحة ضخمة، أو الحصول على مشاريع مالية كبرى، فيتحملون في سبيل ذلك ما يتحملون، ظناً منهم بأنهم يحصلون بالمال على ما يشاؤون، كما يؤمِّنون به ما يرغبون ويحبون (فلا مانع ولا حاجز يحول بينهم وبين العيش الرغيد بأعظم ما يمكن من الرفاهية والرقي)، فالدنيا فتحت لهم أبوابها وقالت هَيت لكم، ولكن هيهات..

• بدأ الفريق العلمي يبحث ويمحِّص ويحقق في تلك الشريحة من المجتمع، وهي الطبقة الراقية من الأغنياء والأثرياء، علَّه يصل إلى ما يصبو إليه، ويعثر على ضالته من السعادة المأمولة، ضمن أصول القوانين المادية، ولكن سرعان ما رجع الفريق بخيبة الأمل، وضياع الجهد والمسعى، على غير طائل ولا نتيجة، هذا عندما استقبله قلق هذه الفئة واضطرابها، إذ أخذ أفرادها يرنون بأبصارهم إلى الماضي، حين كانوا لا يملكون من الدنيا شيئاً يذكر، فلا همّ ولا غمّ ولا نغص، بل راحة بال وصفاء وبسط.

ذلك لأنهم عندما حازوا القصور الفخمة، والمعامل والمصانع الضخمة، بدأ التنافس على أشده، والتناحر والصراعات المحمومة المنتهية بالنزاعات والمحاكمات، والأحقاد للأضداد، والشغل الشاغل في التخطيط والكيد والمؤامرات، بغية قهر المنافسين، ولا

تخلو أمسياتهم من حسابات ودراسات، فضاعت حقوق زوجاتهم وبنيهم، وفقدوا السعادة الأسروية، وانشغلوا بالجمع والمنع، عن منح حقوق ذويهم من الأهل والأقرباء، ونسوا حظَّ المساكين والفقراء، وعندما يبدو لهم نصر الأعداء وفشل تجارتهم، تغدو لياليهم مليئة بالرعب والهلع، وقلما يطرق النوم أجفانهم، فلا ذوق لراحة البال، ولا معنى للاطمئنان في أمسيات حياتهم، فشبح الاغتيال يعكِّر صفوهم، والفشل والخسارة المحتملة بصراعاتهم تقض مضاجعهم، تهدد شموخ بنيانهم بالانهيار، وحيث أنهم أيضاً يشكِّلون نقطة هدف عند المجرمين والسارقين، فبات القلق خليلهم، وإن استطاعوا حماية أنفسهم، كانت احتمالات الخسارة تلوح دائماً في مخيلتهم، فلا أمان على تجارتهم من البوار، فهم في شغل دائم بحسابات الربح والخسارة.

قلوبهم وجلة مضطربة على هيكل المجد والغنى الذي شيدوه، خشية السقوط والاضمحلال كي لا يفقدوه.

فأين السعادة؟! لا سعادة.

هكذا حلَّت في قلوبهم الهموم والغموم، وفقدت السعادة مع وفرة المال والمادة. وحبّاً للاكتشاف وزيادةً في حب الاستطلاع، اندفع الفريق الباحث عن السعادة إلى الحوار والسؤال، فاستجوب بعض أفراد تلك الفئة، لعلَّ السعادة تكون مختبئة في لغز لا يعرفه إلاَّ أصحاب القصور والغنى.

ولكن كان جوابهم الصريح: إننا منذ حصلنا على الغنى، حلَّ بساحتنا الانشغال والهم والغم، وحُرِمنا البسط والسرور والمسرات. كما نسينا إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم، فلا متَّسع من الوقت ونحن في غمرة هذه الصراعات، ولا حقوق للزوجة ولا للبنين، ولا للآباء

والأصدقاء والأقرباء، حتى حرمنا لذيذ المنام، وبلينا بالسهر الدائب، وكل هذا خشية على المال من الخسران والزوال.

لقد سَلبنا المال وجمْعه لذة الحياة، ونحن في حميم الصراعات والطموحات المادية، فنسينا حقوق ربنا لكثرة مشاغلنا، فأصبحت حياتنا القلبية في حميم وظلمات، عداك عن صراعنا ضد العمال الذين يطمحون لزوالنا، ويتبعون المذاهب الهدامة للقضاء علينا (صراعاً محتوماً).

كما أننا نذل أنفسنا لأرباب السلطة، لنصرتنا ونحن في أوج الصراع مع منافسينا من أصحاب المصانع والأموال، حتى فقدنا السعادة، وفقدنا راحة القلب وخلو البال والطمأنينة والأمن، وصرنا نرنوا بأبصارنا وقلوبنا إلى تلك الأيام الخوالي، حين كنا لا نملك هذه القناطير المقنطرة من الأموال، فلا همٌّ يشاغلنا، ولا غمٌّ يغمرنا، أما الآن فحياتنا كلها جمع ومنع، حتى صرنا من أجل جمع الدنيا، وقد فقدنا كل معنى لراحة القلب، وخلوّ البال والطمأنينة والأمن والسلام، حتى غدونا وحقيقة صرنا نتمنى حياة البسطاء، ونحن في أمن وأمان، ننام ملء جفوننا، ونستيقظ بحبورنا، ولو يعلم الناس شقاء نفوسنا لما ظنوا أن السعادة بالمال.

وهذا ملك الملوك يدلي بشهادته ويعترف أمام جميع الناس بالحقيقة التي لا مفرَّ منها، إنه ملك الملوك **(شاهٍ شاه)**: ملك إيران السابق، عندما قامت الثورة ضده وطرد من بلاده إلى أمريكا، حيث نفته أمريكا هذه (لأهداف سياسية لا علاقة لنا بمرماها) إلى مصر، حيث وقع الزلزال النفسي بساحته واشتدت **(بشاهٍ شاه)** الأهوال، فوقف مقراً معترفاً أمام الرائي (التلفاز) ينطق بالحق والحقيقة التي يعيشها الملوك والأغنياء قائلاً:

«لقد كانوا يغبطونني بل ويحسدونني على النعم التي حزتها، والممالك التي نلتها، إذ غدت لدي مدينة حقيقية كبرى للملاهي

على شاطئ البحر، ألهو كيف أشاء، وأتمتع بما أريد، كما أقمت وليمة ومأدبة كبرى لم يطرق مثيلها مسامع إنسان لملوك ورؤساء دول العالمِ قاطبة، بموائد وأواني من الذهب الأصفر الرنان، ومنحت كلاً منهم كل إناء ذهبي أكل منه ولو لقمة واحدة، وها أنا الآن بين أيديكم طريد فريد وحيد، لا ملْك لي ولا مال، وأقسمِ لكم بالله العظيم أنني في الحقيقة لمِ أذق طعم السعادة يوماً واحداً من أيام حياتي، إذ لم يلمس قلبي إلاَّ السخط وانعدام الراحة والشقاء».
فلكم بملك الملوك هذا عبرة يا أولي الأبصار، وصدق من قال: «**خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدره هماً**».

ومن هنا نرى أن السعادة لا تكتسب من المحيط، إن لم تنبعث من قرارة النفس وتشع فيها، وتصبغها بحلل الجمال والهناء والصفاء.

أما وسائل البذخ والترف فكانت عند هؤلاء المترفين، بمثابة جرعات مخدّر لمريض ألمَّت به علَّة مزمنة، وما أن يزول مفعول المخدِّر، حتى تسرع لوعة الملل والضجر والآلام القاسية، وتأخذ مكاناً لتستقر في جسد ذلك المسكين وقلبه.

ولم يكن أمر تحقيق شهواتهم كاملة بوسائل الترف والتسلية التي اخترعوها واستجلبوها أحسن حالاً، فما أن يستوفوها حتى ترى جباههم انحنت للضجر والملل والسآمة، دون أية مقاومة، لتكتظ نفوسهم بأنات وزفرات لا يُعرف مأتاها، ولا سبيل للخلاص منها، فرغم وسائل التسلية المتوفرة لديهم، والتي هي بمثابة جرعات مسكنة كانت غير مجدية ولا نفع لها، بعد استهلاكها والملل منها.

فالآلام النفسية المضنية التي يعانون منها، والتذمر والضجر يعتري حياتهم، والمشاكل والأوجاع النفسية تنصب عليهم من كل حدب وصوب، لتملأ ساحات نفوسهم، ساعتئذ يكون الموت والانتحار هو الحل الوحيد برأي ذلك الإنسان التعيس الذي أضحى فريسة آلامه،

على أمل الخلاص، ظناً منه أنه يستطيع بهذا العمل تحويل الحال وتغيير الواقع القلبي الجهنمي الذي يعيشه.

فتعجب، وأعجب، ويعجب الناس والأدباء في كل مكان، عن انتحار المليونير العالمي ملك الألماس في أمريكا، وهو من أغنى الأغنياء في العالم، لماذا ودون سبب دخل غرفته وأحكم إغلاقها وأطلق على رأسه طلقة مسدس لتودي بحياته، فمال قارون بين يديه، وكافة شهواته متحققة لديه، فما يشاء يحصل عليه، ولا ينقصه شيء من متع الدنيا وبهجتها، فلماذا انتحر؟!

لغز حارت به عقول الغربيين الباحثين وأفهامهم، إذ كانوا يظنون بأن المال **(مادة الشهوات)** هو كل شيء، هو السعادة بعينها، كما يظن كافة الجهلة بواقع الحياة من الناس، أن السعادة تتحقق بالمال، وأن الأغنياء هم السعداء.

فلماذا دفع بالمليونير مع كل هذا المال للانتحار؟! إذن لقد أخطأ من ظن يوماً أن السعادة بالمال الوفير.

إذن: المال لم يُغن عن صاحبه من اليأس والقنوط والضجر النفسي شيئاً، ولم يُحقق له السعادة التي كان يتطلع إليها، فقد حقق بالمال كافة لذائذه ومُتعه، ولم ينل السعادة بل فضَّل الانتحار.

إن نسبة الانتحار في الدول الراقية الغنيَّة، بلغ حدّاً مخيفاً يهدد المجتمع بالانهيار الكامل، ففي سويسرا أصبح مصرَّحاً بالانتحار رسمياً، حيث وافقت الحكومة على إصدار تراخيص وسجلات تجارية لعدد من الشركات التي أنشئت خصيصاً لمساعدة الراغبين في الانتحار، للحصول على طريقة للموت غير مؤلمة، ونتجت لذلك سياحة جديدة في سويسرا اسمها سياحة الانتحار، وإيجاد مقابر خاصة للمنتحرين الأجانب.

يدفع المنتحر(٢٥) فرنكاً سويسرياً لتساعده الشركة على الانتحار غير المؤلم، وتبرر الشركة مزاعمها من خلال الإحصائيات السويسرية التي تشير إلى أن أكثر من (٦٣) ألف سويسري انتحروا دون مساعدة أحد عام (١٩٩٥):

منهم (٣٣٨) ماتوا بالسمّ.

و(١٦) بالمخدرات.

و(١٦) بآلات حادة.

(٣٨٢) شنقاً.

(٩٩) أغرقوا أنفسهم.

و(٣٩٢) بالرصاص.

و(١٢٨) بإلقاء أنفسهم من طوابق علوية.

و(٤) بإلقاء أنفسهم أمام سيارة مسرعة.

والباقي بطرق أخرى.

كما أن أول استطلاع عن الانتحار بالصين، أظهر أن معدل حالات الانتحار(٢٨٧) ألف منتحر كل عام، وذكرت وكالة الأنباء الصينية أن حالات الانتحار تشكل (٣,٦%) من مجموع الوفيات في الصين.

والأمر تقريباً يماثله في بريطانيا، حيث يقدم حوالي (١٤) شخصاً من كل (١٠٠) ألف على الانتحار.

وفي فرنسا (٤٠) ألف مراهق فرنسي يحاول الانتحار سنوياً، (٨٠٠) نفر من هؤلاء لقوا حتفهم لحظة الانتحار.

كما أثبتت في أمريكا (١٨٥٢٦) حالة انتحار في العام الواحد.

في حين لا تجد مثل هذه النسبة ولا القليل منها في دولنا، رغم عدم توفر متطلبات النفس التي بحوزة الدول الراقية بلاد المنتحرين، ففي إمارة دبي التي تفوق غيرها من الدول العربية بنسبة الانتحار، تبين من خلال مقالة لخبير بالطب الشرعي بدبي، حيث أكد أن ظاهرة الانتحار بدبي تشكل أقل نسبة من البلدان الأوربية وكندا وأمريكا.

كما أن الكوكائين والأفيون والمشروبات الكحولية والمخدرات، منتشرة بين أفراد الدول الراقية انتشاراً ملحوظاً، يتناولونها ليغيبوا بها عمَّا يخالط نفوسهم من أهوال تمزقهم، وتبعث فيهم وهج نار قلبية حامية، حتى أنها تقذفهم نحو الانتحار والموت، راجين فرج الكرب، آملين الخلاص مما فيهم من نصب وتعب، وضجر وملل، كالمستجير من الرمضاء بالنار، فهم يجهلون تماماً وبعلومهم الماديَّة ماذا بعد الموت من أهوال.

ولنا في قصة علاَّمتنا **(محمد أمين شيخو)** خير عون وسند لاستجلاء وجه الحقيقة بوضوح، تمَّ هذا عندما اجتمع بعميد عائلةٍ شهيرةٍ بالغنى والسلطان في مدينتنا (دمشق الحبيبة)، فوجده كئيباً مترعاً بالهمِّ والغمِّ والملل، فسأله علامتنا:

«خيراً يا بيك، ما هو المصاب الذي أصابك فحلَّت بساحتك الهموم والأكدار، علماً بأن لديك قصراً شامخاً في مصيف بلودان الشهيرة، وقصراً في لبنان، البلاد الفاتنة الجمال، كما أن لك فنادق ومشاريع في سويسرا وأوربا وأمريكا، فلماذا لا تتنزه بها وتجلو عن نفسك الصدأ، وتذهب عنها الأكدار؟!».

فأجابه: «يا بيك، بلودان أعرفها وقد مللتها، ولبنان وسويسرا وأمريكا قد شبعت منها ومللتها، ولا أستطيع النجاة من الملل والضجر الذي يكاد يقتلني، لقد شاهدت كل شيء، ومللت من كل شيء».

وبعد أربعة أيام من هذا اللقاء والحديث، قرأ العلاَّمة الشهير (محمد أمين شيخو) نعوة هذا المليونير على الجدران.

لقد عاف الحياة وما فيها، وزهد بالمال وكرهه، فلم يحصل على السعادة في شيء، رغم حصوله على كل شيء، بل أورثه الضنك والشقاء، ولقد صدق رسول الله ﷺ إذ قال: «**تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم..**»[٩٠].

وهكذا الدنيا، وطالبوها يسعون ويركضون، حتى إذا تم لديهم بالمال كل شيء ولم يصلوا إلى السعادة، فضَّلوا الموت أو الانتحار. ناهيك عن مرضى الكآبة الذين لا يعرفون للشفاء منها سبيلاً، ولا طريق بالأدوية الطبية إلا التخفيف المؤقت، ولا جدوى ولا شفاء.

لِمَ ذلك؟

وفي الحقيقة نقول إن طاقة الجسم البشري محدودة أمام طموحات النفس ومشتهياتها الكبرى، إذ تتمنى النفس أن تحوز كل المشتهيات والثروات، وأن تحصل على كل الملذات، فتصطدم مع إمكانات الجسم المحدودة الصغيرة، فتركيب طاقة غير محدودة، على طاقة محدودة، هو مبعث الألم ومبعث الشقاء.

ويظهر هذا جلياً عند سن العجز، حيث يتهافت الجسم ويتدهور مع تقدم السن، ويكون بعد الخمسين والستين قد اسْتُهْلِك، ولا يتمكن من تحقيق طموحات النفس اللامحدودة بسبب الأمراض والعجز والإنهاك، ناهيك عن ضعف البصر والسمع والسقوط والتراجع الجسمي المستمر، بما يورث القنوط للنفس، والإصابة باليأس وربما الانتحار.

وهذا شاعرنا العربي يقول:

---

[٩٠] سنن ابن ماجه ج٢ رقم /٤١٣٦/.

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانيـــن حْولاً لا أبا لَك يســأم

هذا وكم من الأغنياء المرضى حصلوا على الملايين من الدنانير، يتمنون من صميمهم أن لو لم يملكوا شيئاً من المال، ولهم من الصحة والنشاط والحيوية ما للآخرين، فليس للسعادة من سبيل عند رجل أضنته علته ومزقته آلامه الجسمية، والأمراض والأوجاع أخذت منه كل مأخذ، فأرهقته وسلبته الهناء، على كلٍّ ليست اللذة الحسية عن طريق الجسم سعادة حقيقية، إنما هي لذائذ منقضية عابرة، وقضاء شهوات ورغائب، يعقبها الشقاء. شتان بين هذه اللذات المنقضية، وبين السعادة الدائمية، والفرق جدٌّ واسع وكبير.

ذلك أن السعادة تستقر بالنفس وتخالطها وتمازجها، وبما أن النفس هي الذات الشاعرة وطاقاتها غير محدودة، بينما الطاقات الجسمية محدودة، لذا لا يستطيع الجسم تلبية كافة رغباتها وتطلعاتها.

فتركيب طاقة غير محدودة على طاقة محدودة كما قدَّمنا، يجعل الأخيرة لا تستطيع تلبية رغائب الأولى، إذ النفس كالفرس الجموح، كلما قضت من شهوة وطراً، طلبت الأخرى من غير ملل أو كلل، لأن ماهية تكوينها غير مادية، وباستطاعتها أن تبتلع لذة الوجود من غير أن تشبع، أو من غير أن ترتوي طاقاتها اللانهائية.

فالنفس البشرية لم تُخلق لتُملأ أوضاراً، إنما أعدت لتُملأ كمالاً وجمالاً مطلقيْن، وسعادة أبدية متسامية، ولترتوي من معينٍ لا ينضب، ولترتشف من جمال خالقها وجلاله وعلمه ورحمته الذي لا يتناهى، وبه بالصلاة الحقيقية اليقينيّة تقر عيناً وترتوي ريّاً متواصلاً بلا حدٍّ ولا عدٍّ، فالسعادة بالله ومن الله فقط، فهو تعالى خالق الكون والجمال والسعادة.

الموت بالمرصاد:

على حين نظر المترفون إلى الرفاه المادي نظرة المنقذ لهم من الشقاء والآلام، فبدأ التسابق وبدأ السعي في اختلاق تفننات جديدة في الحياة غير مألوفة، وبذلك أخذت الحياة نحو التعقيد بدل التبسيط والشقاء بدل السعادة. على كلٍّ مهما حقق الإنسان، فإنه يبقى أمام المصير المحتوم الذي لا بدَّ منه ولا فرار، ألا وهو الموت (هاذم اللذات ومفرِّق الجماعات) وانتهاء مرحلة الحياة، فما أعظم تلك الساعة، وما أشقى صاحبها!

إنها ساعة الفراق والرحيل إلى غائب مجهول، والإنسان عدو ما يجهل.

لقد نسي الإنسان أن مع الحياة موتاً، ومع الدنيا آخرة، بل غفل عن تلك الساعة التي يجرَّد فيها المرء من جميع ما يملك، حتى ملابسه التي على جسده، ثم يساق إلى القبر فريداً وحيداً، بلا أنيس ولا جليس، ولا فراش ولا مستند مادي، إنه الأجل قد حلَّ وجاء، وما أصعب العيش بعد فقدان الأمل. فهل يغني عنه ماله؟ وهل يدفع عنه شيئاً مما سيحل به؟ ولو كان ملء الأرض ذهباً، في ذلك القبر الضيق، والظلام الدامس! هذا الذي اعتمد طيلة حياته الدنيا على أنوار مادية، وعلى حواس جسمية، لا على أحوال قلبية إيمانية، ومشاهداتٍ ربانية، الآن أضحى الجسد جثة هامدة، وزالت الحواس، وفقد النور البصري، وبقي المسكين غارقاً في الظلمات رهيناً، فمن هو؟ وأين هو؟ ومن أتى به إلى هذه الدنيا؟! النفس والجسد غريبان، والمكان مظلم ورهيب.. إنه انتقال سريع ومفاجئ، فأين الصاحب والحبيب، والمال والبنون؟

إنه سجن وأغلال وقيد ثقيل، لا مفرَّ منه يومها ولا مخرج، لقد انطفأت آخر شعلة بالمصباح، وانقطعت الحياة، وانهار أساس ذلك البرج الذي بناه على الرمال:

يا من بدنياه انشـــغـل وغرَّه طـــــول الأمـــل

فأين السعادة المرجوة، إذا كان هذا هو المصير؟ وأين السرور والحبور، إذا كانت النهاية تنحصر في هذه الحفرة؟ أين النعيم المقيم والصفاء المنشود، إن لم يعرف الإنسان الخالق أو لم يتعرف عليه، إذ المصير الحتمي إليه، والحياة الأبدية به وإليه؟!

وبعد هذه الجولات وجد الفريق العلمي الكبير أن الرفاهية لدى الأغنياء طعامها ذو غصة، وأن عليها لشوباً من حميم، والسعادة المنتظرة التي كان الأغنياء يحلمون بها، إنما كانت كسراب بقيعة، يحسبه المترفون ماءً فيه الحياة والهناء، فلمَّا جاؤوه لم يجدوه إلا وهماً وضنكاً، وكان المال مبعثاً لشقائهم وضياعهم عن السعادة الأبدية الحقيقية. وعند الموت ينزلون قبورهم عراة، لا يأخذون معهم درهماً ولا بنساً.

في سماء الفقراء:

عند هذه النتيجة غير المتوقعة بادئ ذي بدء، قام الفريق الباحث عن السعادة ويمَّم وجهه نحو البسطاء والفقراء، علَّه يجد السعادة عندهم، تلك الطبقة الكادحة في المجتمع التي تسعى وراء لقمة العيش، لترد شبح الموت جوعاً أن يفترس أفرادها.

وعند السؤال ظهر السخط والتذمر، وعدم الرضى هو الجواب، وفُتح الباب ليُسفر عن منظر رهيب من الكآبة والقنوط، واليأس وفقدان الأمل، فكل فقير يندب حظه التعيس، أن قضى عمره في القلَّة والحرمان، وينشد أناشيد يحلم فيها أن يكون له كما للأغنياء **(أهل السعادة بظنه وخياله)** من مال وفير، وغنى كبير، وقصور تناطح السحاب، فنراه يكدّ ويسعى لبلوغ أمجاد كبرى، ولكن دون جدوى، يخال في مسيره نحو أحلامه أنه سوف يصل للسعادة إذا كان لديه ما للأغنياء من رفاهية وبحبوحة في الحياة، فالجوع قد

عضَّه بنابه، والحاجة مزَّقت رداءه، والفقر قرض بنانه، فليس للسعادة من سبيل لدخول بيته، أو حتى أن تطير فوق سمائه.

هذا لأن طبقة الأغنياء قد أفسدت معيشته، فبيته الذي كان في عينه جميلاً، قد أصبح كوخاً حقيراً أمام القصر المنيف الذي شيد إلى جانبه، فالإنسان يظل راضياً بمعيشته في مجتمع متوازن، أما إن حصل التفاوت، عندئذ ينظر إلى ما كان يستحسنه بالأمس ويرتضيه، نظرة ازدراء واحتقار، ويحل بساحته الضجر والسخط، والتبرم من الحياة.

فلقد أفسد المترفون على السواد من أفراد المجتمع حياتهم، إذ ليس بوسع الناس جميعاً أن تبني قصوراً، وتقتني أثاثاً فاخراً فخماً.

لهذا نرى الفقراء وقد ملأ الحقد نفوسهم، وسيطر عليهم حب الانتقام، ولا عجب أن يتكتلوا ضد الأغنياء، ليُسْقِطوا فوق رؤوسهم فؤوساً، ويسقوهم كأساً علقماً، كما هم بسببهم تجرعوه.

هذا نتيجة الظلم والاستغلال الذي يمارس عليهم بظنهم من قبل الأغنياء، من أجل لقمة العيش وستر للحال، فذاقوا بسببها الذل والهوان، إنها حقيقة تطوف البلاد، وتمر بها العامة من الناس، إنها فقدان السعادة من كلتا الطبقتين على السواء، واستبدالها بالأحقاد والسخط والتبرُّم والضغائن وعدم الرضى، جراء التفاوت الطبقي بين الفقراء والأغنياء.

فالعمال الكادحون تراهم يخططون لإحداث انقلاب أو ثورة على أرباب العمل والانتقام منهم، لأن أولادهم في الرفاهية يتيهون، وبالدفء والطيبات يتمتعون، أما أبناء هؤلاء الفقراء ففي الحرمان يشقون.

وكذلك الفلاحون يثورون ضد الإقطاعي المستبد، إلا أن الأخير يضع كعب رجله على أفواه الألوف من ذوي الحقوق، فيقهرها ويخرسها عن المطالبة بحقوقها المسلوبة بنظرهم.

فالمترفون يزدادون غنى وتسلطاً واستغلالاً، والمحرومون يزدادون فقراً وعبودية وحقداً وإذلالاً.

أمام هذه الصراعات والأضداد، وقف الفريق الباحث عن السعادة خلف جدار منيع تلفُّه الحيرة، وتحيط به إحاطة السوار بالمعصم، فعبثاً صرفت اللجان العلمية العليا الباحثة عن السعادة الجهد في البحث والتنقيب، وهباءً ضاعت المساعي، فلم يعثروا على أثرٍ للسعادة لدى الأغنياء المترفين، ولا عند الفقراء البسطاء.

في سماء الفتوّة والشباب:

عندئذ يمَّم الفريق وجهه شطر فئة أخرى رمت من على عاتقها أعباء المسؤولية، وتكاليف الحياة الشاقة، إنهم الناشئة من الشباب والفتوة، على أمل إيجاد السعادة الضالّة المفقودة، علَّه يجد السعادة عند هؤلاء الذين لا زوج لهم ولا ولد، ولا مسؤولية يتحملونها.

أخذ الفريق العلمي يستقرئ أوضاعهم عن كثب، ويستجلي غور حياتهم، هل هم الذين ينعمون بالسعادة المطلوبة؟ إذ أن حملهم خفيف، وتدفق الحيوية لديهم بأوجها. ولكن عند التقصي والاستجواب وُجد أن كل شاب أعزب يُغَني على ليلاه، وهو عن سبيل السعادة قد تاه.

لا رضى لأيٍّ منهم بالحال الذي يعيشه، وهو يضم بين جوانحه أحلاماً ذهبية يهفو إلى تحقيقها مستقبلاً، فكل شاب يحلم بحياة زوجية يسكن إليها، تروي ظمأ قلبه الذي أقلقه طيف الحياة الجنسية، وأشعلت الأرق في نفسه، فلقد فعلت الشهوة الجنسية في نفوس الشباب كما تفعل النار في الهشيم، وكان لسان حالهم يقول:

(NO LIFE WITHOUT WIFE) **أي لا حياة بلا زوجة**، ظنّاً منهم أن السعادة تكون عندما يحصلون على زوجة يتمتعون بها، فينالون السعادة باقي عمرهم، وينالون أقصى مناهم.

عند ذلك أدار الفريق الباحث عن السعادة بحثه العلمي نحو الحياة الزوجية وإلى الفئة المتزوجة من المجتمع، بحثاً عما يزعمه الشباب من أن السعادة عند المتزوجين، فوجد أن كل رجل مقترن بامرأة، يرنو ببصره إلى تلك الأيام الخوالي، التي كان فيها حرّاً طليقاً من قيود وأعباء الحياة الزوجية، التي تفرض عليه نظماً وقوانين كان بغنى عنها أيام عزوبته.

فخروجه من بيته أصبح يُسأل عنه، وتأخره محاسب عليه، وكذا تصرفاته والأماكن التي يزورُها، أصبحت مخصوصة بأيام محدودة، وغيابه عن البيت يسبب له مشاكل وصراعات تفقده روح المحبة والألفة والصفاء، فكل لقمة بغصَّة.

فالزوجة تطالب بحقوقها، والأولاد يحتاجون لوقت مفرَّغ لهم، كما لا يخلو الأمر من القال والقيل، بين أفراد أسرتها وبينه، وبين أفراد أسرته وبينها.

والحقيقة كل الحقيقة، أن اللذَّة الجنسية لا تجلب سعادة، إنما قضاء شهوة آني يتكرر كل حين، بنفس المستوى ولا جديد، ثم الملل بعد فترة من نفس اللذَّة بنفس المستوى، لاسيَّما إن كان هناك خلافات.

ومن خَبَر الغواني فإنهن ضيـــــاء في بواطنه ظلام

فالمرأة لا يطيب لها ما يحلو لأهل زوجها، ومن هنا تبدأ المنازعات، وتتفاقم المقاومات، حتى تشل كل حب ووفاء، ويقف هذا الزوج المسكين مكتوف الأيدي، لا يدري نهايةً لتلك المنازعات، أو حلاً مجدياً لها إلا أن يخسر أهله وذويه، أو يضحي بزوجه، وتكون التفرقة، ويتمنى أنَّه ما بدأ هذا المشوار، وكل هذا يسبب له الخيبة

في السعادة المنشودة والهناء التي كان يحلم بهما عندما كان عازباً ينعم بالحرية، ويحصل على ما شاء بلا همٍّ ولا مسؤولية ولا خصام، فلم تتحقق تلك الأماني العذبة الحلوة، وأصبحت السعادة المنشودة سراباً مشوباً بالخصام، وفقدان المحبة القلبية والوئام.

وأصبح الفريق العلمي الباحث يقلِّب كفيه حائراً في أمر السعادة، فكل فرد جاء يشكو دهره **(ليت شعري هذه الدنيا لمن)**؟ وأين السعادة؟**!** لا سعادة... كل ما زعموه عنها كلام.

في سماء الطفولة:

ولكن بقي بصيص من النور يتسرب إلى فريق البحث العلمي، إذ انطلق إلى الأطفال الأبرياء، والصبيان المرحين، من أجل هدفه المنشود وهو السعي وراء السعادة المنتظرة، ولم يجد بأساً من استنطاقهم، هل هم سعداء بحياتهم التي لا يعكِّر صفوها مشاكل وتعقيدات المجتمع المتعاكسة؟ فوجدهم ينتظرون السنين لتدور دورتها وتوصلهم إلى سن الكبار الذين حولهم، فيصبح لهم كما للآخرين من قوة وقدرة مالية وحرية رأي، فكل غلام في بيت أبيه يتذمر ويتأفف من هذه القيود والقوانين الاجتماعية وغيرها، والتي يخضع لها جبراً وتحجز حريته.

فمنذ الصباح ينتظر هذا الولد الصغير تساقط التعليمات على رأسه والإرشادات الأبوية التربوية أن: اذهب، لا تتأخر، لا تصاحب، لا تقل، لا تفعل، لا لا.. ثم القيود المدرسية، إنه يمج حياته من تلك القيود التي يخضع لها وتحجز حريته، فهو ساخط على وضعه يتمنى الإسراع بالنمو، لينال الحرية وملْك التصرف والسعادة، ليغدو حراً طليقاً مما يمارس عليه من أوامر وفروضات، وعندما يكبر الأولاد يغدون شباباً ورجالاً يجلسون في أوقات صفائهم يتذكرون حياتهم الحلوة البريئة في سني طفولتهم، فبهجتها بظنهم لا زالت في

مخيلتهم، وأفانين اللعب والمرح تمرُّ أمام ذاكرتهم وهم يتمنون في صميمهم أن يعودوا لطفولتهم ولا يكبرون، ولكن لم تكن هناك سعادة عند الأطفال أنفسهم حقاً، بل كانوا أسرى القيود الاجتماعية والأسروية والتربوية، يأملون بالحرية والخلاص من كل ما يكبت رغائبهم، بل يظن الآخرون أن السعادة عندهم. إذاً لا سعادة أيضاً عندهم. فهل من المعقول أن تكون السعادة حقاً مفقودة؟!

وانسدت الطرق أمامهم:

نعم لقد وصل الفريق العلمي الباحث عن السعادة إلى طريق مسدودة بعد دراساته المختلفة لجميع شرائح وطبقات المجتمع المتعددة، فقالوا: إن السعادة غاية لا تدرك، وهي كالزئبق تفر من البنان، فليس للعلم وقوانينه للوصول للسعادة من سبيل، عندها ظنوا وقالوا إن السعادة وهم وخيال.

ولكن يبقى السبيل للوصول إليها حلماً يدغدغ أفكار العلماء والفلاسفة، ظانين أنهم بما يحْدثونه من نظرياتهم أو من حضارة مادية وتقنية علمية متطورة، يوماً ما سوف يستطيعون إخضاع الطبيعة، لتنجب لهم مولوداً يسمونه (السعادة)!

هكذا يزعمون، إلا أن الواقع الذي لا مفرَّ منه يكذِّب أحلامهم، وينقض فرضياتهم، فحضارتهم تلك أنجبت دماراً وقتلاً وخراباً وجوعاً وحرماناً، وسفكاً للدماء، وصراخاً للأطفال الأبرياء بما خلَّفت من وسائل الحروب المدمرة التي لا تبقي ولا تذر أمامها أحداً من البشر، بأزيز رصاصها ودوي قنابلها التي تصم آذان أهل الأرض، وأعني بها الرؤوس النووية وأسلحة التدمير الشامل.

هذه الرؤوس النووية المحمّلة على الأقمار الصناعية، التي تهدد العالم بالفناء في لحظة سقوطها على الأرض، راحوا يتسابقون لإيجاد واختراع أسلحة أكثر تدميراً، وأشمل هلاكاً للحرث والنسل،

حجتهم في ذلك: **(إذا أردت السلام فتهيأ للحرب)**، هنا طارت السعادة والأمن والاطمئنان. حقاً لقد ضلوا سبيل الوصول إلى السعادة.

بيد أن الإلّه الرحيم لم يوجد في هذا الكون الفسيح أية وسيلة للدمار والتخريب، وما خلق للإنسان ناباً ولا مخلباً حتى يفترس أخاه الإنسان، بل أهدى إلينا الورود والزهور والرياحين الشذيَّـة النضرة العطرة التي تأخذ بمجامع القلوب لخالق جمالها. والثمار الطيِّبة المذاق، والنبات المتدفق بالحياة، والينابيع الرقراقة النضرة، والأنهار العذبة، فمن أسمائه تعالى **(السلام)**، فقد أمَّن لنا ما يعود علينا بالسلامة والهناءة والسرور، والحياة الطيبة والحب الخالص الطاهر السامي، فخلق لنا في آياته الكونية جمالاً أخَّاذاً حين يرسل لنا قطرات الندى، تُحيي أوراق الأشجار اليانعة كل صباح، بأرق وأعذب التحيات المترعة بالحياة.

ويغمرنا بأشعة الشمس الدافئة المتدفقة بالأنوار وما فيها من الحيويات، ويتحفنا الرحيم الشفوق ويطربنا بزقزقة العصافير وزغردة شدو البلابل وتغريد الكراوين، وخرير المياه الطروب وحفيف الأشجار اللطيف.

فالخالق الكريم ما أوجدنا إلاَّ ليكرمنا ويمنحنا من مزيد فضله وبره، ويكلؤنا بعيون رعايته وكرمه، إذ حوَّل تعالى عظمته وجبروته وقوته، إلى رحمة ولطف وحلم ورأفة، فخلق لنا قمراً منيراً مكللاً بحلل الجمال والبهاء، ونجوماً وأجراماً عظيمة، ظهرت لنا كمصابيح لطيفة هادئة تزين بالليل السماء، ولم يسقط كسف الغيوم والسحب كالجبال، بل قطرات صغيرة وودْقاً[٩١] مفعماً بالحياة،

[٩١] الودق: معنى لفظ الودق في فقه اللغة العربية مشتقة من الود الإلّهي والدقة التي تهطل بها قطرات ماء السماء الحاملة للحياة من الحي سبحانه، فقطرات الماء هدايا يوادنا بها

تتجلى فيه رأفة الإلّه وودّه وبركاته. هذا صنع الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه؟!

وهو الذي منح كل شيء خلقه ثم هدى الإنسان لما فيه السلامة والسعادة والأمان.

فالله تعالى لا يريد لعباده الظلم والأحزان، ولكن هم استحبوا العمى على الهدى، واختاروا القتل والتدمير والظلم والعدوان، تنافساً على الفاني الزائل، بما أحدثته الثورة التقنية من طغيان مادي شامل، أغرق الأنفس في ظلام حالك، فسدَّ عليها منابع النور، وحجبها عن مواطن الأمن والأمان، زاعمين أنها توصلهم للسعادة بما يكتشفون من العلوم والاختراعات، والتي لا تلبث أن تغدو ابتداعات جهنمية، وتسابقاً نحو التسلح للدمار والفناء، ولم يخطر ببالهم أن ما عند الله خير وأبقى، فأشاحوا بوجوههم عن الإلّه العظيم، مبدع الأرض والسموات، الذي خلق كل شيء ويخلق، وأوجدنا من قبل ويوجد.

واتجهوا لعلمهم المدمر، فجعلوا منه إلّههم، مما سيعود عليهم حتماً بالويلات.

أللشقاء خلقنا؟

فهل من المعقول أن ينفي الخالق الرحيم والمبدع للسموات والأرض السعادة من الوجود، ويجعلها غاية لا تُدرك، ليتخبط الإنسان من أجل الحصول عليها خبط عشواء، باحثاً عنها دون جدوى ولا نتيجة؟ الحقيقة أنه تعالى لم يوجدنا إلا من أجل نوال السعادة الكبرى دنيا وآخرة.

القريب جلَّ شأنه، فيجعل بها النماء والثمرات والفواكه طيبة المذاق، بها يواددنا لنلتفت بقلوبنا إليه فيمنحنا ما أعده لنا من الخيرات الدائمية في الحياة وبعد الممات.

أقول: إن فاطر السموات والأرض، قد أبدع الوجود على غاية في الدقة والكمال، وغاية في الإبداع والجلال، تاركاً للإنسان مجالاً لكي ينظر إلى السماء كيف رفعت، وإلى النجوم كيف حبكت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى البحار كيف ملئت، ومَنْ العظيم الذي ملأها، وإلى الأرض وما بث فيها من دابة، كيف خلقها ورزقها، وإلى ما أنبت فيها من كل زوج بهيج، سقاه تعالى من سنا جماله سبحانه. ترى من الذي قام بكل هذا ويقوم؟ ومن الذي أمدَّ ويمد الوجود بالوجود في كل آن؟

ثم جعل جلَّ شأنه شرائع وقوانين، متوافقة مع الفطرة التي فطر الإنسان عليها، وهي تهدف إلى السعادة في الدنيا والآخرة، بنيت على مبادئ قويمة، تنهض بالأنفس لتسمو بها لربها وتربطها بخالقها، وبهذه الصلة نحصل على السعادة، إذ منه تعالى الخلق والحياة، والإمداد بالطعام والشراب للأجسام، والسعادة الكبرى الدائمية للنفوس والقلوب المترعة بالخير والغبطة الأبدية والكمال، وكمال الكمال. **فالسعادة من الله وبالصلة به تحصل**. نعم بالصلاة تُنال كل سعادة، والصلاة نتاج الإيمان الذاتي ومشاهدة الآيات، فالمؤمن سعيد، فهو بارتباطه القلبي بأسعد خلق الله بالله، تغمره شلالات النعيم المقيم، والهناء والأمان والجنَّات.

والمؤمن بالله حقاً هو السعيد، فربُّ كل شيء هو رب السعادة، والسيْر بقوانينه يوصل المرء حتماً للسعادة، التي لا شقاء بعدها، بل سعادة تتلوها سعادات، والله لا نهاية له، كذا السعادة به دائمية سرمدية، متزايدة متنامية، فبالسعادة من الله، يغدو المرء في جنات متسامية متعالية، لا ملل ولا شقاء، بل بقاء في السعادة الكبرى أبد الآباد، إذ لا تقتصر على الدنيا بل بالبرزخ والآخرة وللأبد، عندها نستطيع أن نتحرر من عبودية المادة، التي ما أن تستولي على النفوس حتى ترديها، وتجعلها تعيش معيشة ضنكاً، وبالإيمان بالله

والاستقامة، تغدو المادة وسيلة لنوال الخيرات والجنات، بفعل المعروف وفعل الخيرات.

كيف يتحقق عنصر الرضى؟

وبالإيمان، والصلة بالله، والصلاة الحقيقية، يتبدد الخوف، ويزداد الرجاء كلما تقدمت بالإنسان السنون التي تقربه من المصير المحتوم، عندها لا يتضجر إذا أقبلت الدنيا عليه أو أدبرت، وكذلك لا يبالي إذا اعتلَّ أو أصابته مصيبة، لأنّه يعلم أنَّ الحياة الدنيا ليس لها بقاء، وأنَّ الشفاء النفسي خير وأبقى، وبه نوال الجنات والمكرمات بالديمومة اللانهائية، وبعد الشفاء النفسي يتم الشفاء الجسمي، وما هذه الدنيا بدار بقاء. والحقيقة أن السعادة في الرضى، رضى المرء بما هو فيه، كيفما تقلبت الأيام، وتبدلت الأحوال ودار الزمان، ذلك لأن المؤمن بربه حقاً، يغمر قلبه نور حقيقي من ربه، يشع في قلبه نعيماً بصلته بربه، لا يستطيع الواصفون وصف ما فيه من سرور، تعجز الدنيا ومباهجها عن الإتيان بجزء بسيط منه.

هذه السعادة ليست مادية، بل هي من الله خالق الجمال، والطمأنينة الأبدية تحصل بالصلاة، وإليها حقاً دعوة أنبياء الله، وبها الرضى والنعيم، عندها تتم لك السعادة، فترضى بما أنت فيه، إن كنت مريضاً مدنفاً لا تستطيع حراكاً، أو فقيراً معدماً لا تملك قليلاً ولا كثيراً، السعادة أن ترضى وتطمئن نفساً بكل ما يعترضك من أحوال الحياة، حلوها ومرها، عسرها و يسرها، فإذا ما استوت لديك الأحوال، ورضيت بها فقد حصلت على السعادة، بسبب صلة نفسك بربك، منبع السعادة ورافدها، وما سوى ذلك ما دمت منغمراً في الدنيا، فإنك لن ترضى بما أنت فيه، وليست لنفسك صلة بالله منبع الخير والنعيم، فما أنت من السعادة في شيء.

وتعجب من قولي هذا فتتساءل مستنكراً، أمن الممكن وهل من المعقول أن يكون المرء راضياً، وقد أضحى في حزن الحياة من بعد سهلها، وأصابه عسرها من بعد يسرها، وذلها من بعد عزها؟! ومن الذي يرضى بما تقول، إلا أن يكون جماداً قُدَّ قلبه من صلب الصخر، أو أن يكون مستيقناً بما يتلو هذه الشدة والعسرة، من رفعة تفوق أضعاف ما كان فيه من بسطة وسعة؟

وفي الجواب على هذا أقول: لك كل الحق في ما قدمت من قول واعتراض، وأن ليس من السهل ولا اليسير أن يرضى المرء بما حل به من مكاره وشدائد وضائقات الدهر، لكنه إذا علم مستيقناً أن هناك يداً واحدة تتصرف في هذا الكون، وتسيِّره ضمن العدالة والحكمة، ووفق الرأفة والحنان والرحمة، وذلك بالتوصل من الآيات الكونية، للمكوِّن جلّت عظمته، ومن الصنع العظيم للجبال والبحار والسموات، لصانعها ومبدعها، فتسلك كما سلك أبوك أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فتتوصل من آلاء الله، إلى الإلّه الخالق، خالق الجمال، والمتفضل بالسعادة، فيغدو قلبك راتعاً في النعيم المقيم. فإذا ما عرفت ربك، عندها تعلم أن يده تعالى، المسيِّرة للكون، وإرادته الحكيمة المدبِّرة التي اعتنت بك وربَّتك في بطن أمك، وخلقت لكَ السمع والبصر والأسنان، ولم تنسك طفلاً رضيعاً، ولم تنسَ تسيير الكون وإنزال الأمطار لطعامك وشرابك، هذه الحضرة الإلّهية هي أرأف وأرحم بك من أمك وأبيك، وصاحبتك وبنيك، حتى من نفسك التي بين جنبيك، وأنها لا تسوق لك إلا ما يكون سبباً في صلاحك، وبما يعود عليك بالخير العميم، وإنَّ ما أصابك إنَّما أصابك بسبب ما قدمت يمينك، وأنَّ هذا المَصابَ ليردَّك عن الخطأ للصواب، والخير و الهناء.

وكل ما يسوقه تعالى لهذه النفس دواء مناسب، بحسب حالها وبحسب اقترافها، وما ذاك التسليط من فقر وفاقة، وسجن وعذاب وتنكيل

وتعرّض للقتل والإعدام، إلا لتستسلم النفس إلى الله، وتعلم أنَّ ما أصابها من الشدة والبلاء إن هو إلاَّ بما كسبت يداها، وبسبب ما وقعت فيه من إجرام، فتصدُق وتلتجئ لله فترى إجرامها، فترجع عنه وتتوب توبة نصوحاً فتشفى، فيعود عليها ربها بالصحة والجاه والمال، لتنفق وتنال خيري دنياها وآخرتها، وما أسرع ما تنكشف لها الحقيقة، وتعلم أنْ لا إلَه إلاَّ الله، وأنَّ الفعل كله بيد الله، وأن الشدة التي حاقت بها إن هي إلاَّ محض رحمة وفضل وإحسان من الله، فتشكر الله على البلاء، وتشكره على ما ساق لها من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، ولو لم يُسلَّط عليها ذلك البلاء والشدة، لظلت محرومة ممنوعة من الخير، والحمد لله على ما أصابها، وله الحمد على كل حال، ولا يُحمد على مكروه سواه، لذا تبقى تلك النفس التي وصلت لهذا الحال، مسرورة راضية مرضية من الله تعالى.

نقطة هامّة جداً:

أقول: إذا عرف الإنسان هذا حق المعرفة، لا بل إذا آمن بهذا حق الإيمان، ولا يتم ذلك حقاً وصدقاً ما لم توقن نفسه بساعة الرحيل من الدنيا، التي لا بدَّ منها حتماً، فتشيح عن دنياها، وتصفو من كدوراتها، ناظرة متأملة في صنع خالق الكون ومخلوقاته السماوية، فتصل من الخلق للخالق كما ذكرنا، ومن الصنع للصانع العظيم، فتلمس وجوده، وترى طرفاً من نوره، فتتيقن من أنَّ الإلَه مع آلائه وآياته الكونية، ومع الإنسان يرفده بالحياة ويحرك له قلبه ورئتيه، بعد أن خلقه نطفة فسوَّاه فعدله رجلاً، إذاً: الإلَه موجود يقيناً، فأنا مسؤول تجاهه، وهو منشئ المخلوقات، وهي نسيج صنعه، فلا يحق لي التعدي على حرماته، فيعلم ويشهد قلب المرء بوجود يوم الحساب به تعالى، فيستقيم، ولن يؤذي نملة، بل يفعل ما فيه الخير والرحمة للمخلوقات.

فأي عمل خير، بعد أن كف عن الضرر، يورث نفسه ثقةً برضى خالقه عنها، فتسري النفس راضية بعملها الطيب للإله، وتحظى حقّاً وحتماً بالسعادة من خالق السعادة، خالق كل جمال، والمتجلي على الأكوان وعليه، بصفات الإحسان والسرور والهناء والعطاء والنماء، المانح للكل ما فيه الخير والكمال.

عندها يشهد هذا المؤمن فضل الله وعطاءاته، ويلمس حبَّه ويذكر فضله مذ كان في بطن أمه، وكيف أمدَّه ويمد الجميع بالغذاء والحياة والنماء، فيَهيم به حبّاً وثناءً وتقديراً، ويحمده بكل جارحة من جوارحه، فيشعر ويلمس ويذوق نعيم اللقاء مع هذا الرب المنعم المتفضل، ويؤمن بأن الحمد، أي الثناء النفسي، كله لصاحب الحب له ولكافة خلقه، والعطف واللطف يغمره منه، ويغمر العالمَين، فيعلم حقيقة الحمد لله رب العالمين.

الحمد لله على كل حال:

وإن شئت فقل إذا آمن الإنسان حقّاً بكلمة: **{الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ}** فهنالك يطمئن قلباً، ويهدأ بالاً، ويستسلم كل الاستسلام، ويرضى بتصاريف القضاء رضىً يجعله لا يضطرب لحال، ولا يتألَّم من تبدُّلات الزمان، وكيف يضطرب ويتألم وهو يرى أن هذه اليد الرحيمة، والإرادة العطوفة الحكيمة، ما منعت عنه إلاَّ لتعطيه، وما أخذت منه القليل إلا لتمنحه الكثير؟! ثم كيف يتألم أو يضطرب وهو يرى قربه من تلك الذات العلية، ويشهد من كمالها، ويرى من جلال أسمائها وجميلها، ما يتوارى خلفه كل ما سواه؟ ويشعر المؤمن بنعيم قربه تعالى ولذيذ وصله، شعوراً ما تعدّ لذائذ الحياة كلها إلى جانبه وبالنسبة إليه شيئاً مذكوراً، فيعود من بعد تلك المشاهدات بصلاته وصلته بربه، والفضيلة تزينه، وحب الإلٓه والرضى بتسييره الخيِّر على كل حال، غنيمته وعدّته في خوض غمرات الحياة.

وهكذا لا ينال المرء السعادة الحقَّة، إلاَّ إذا كان راضياً، ولا يرضى حقّاً، إلا أن يكون مؤمناً بخالقه، مستسلماً إليه، شاعراً بحنانه ورحمته، خاشعاً ببصيرته دائم الإقبال عليه، ومنه تعالى قريب، عندها يغدق عليه جلَّ وعلا من عظيم فيوضاته وبحور أنواره، لينهل من لآلئ ضيائه الباهر المونق المغدق المشرق، ويرتشف من ينابيع حبِّه ماءً غدقاً، لا يظمأ بعدها أبداً، فيغدو في النعيم المقيم بنوال تعاظمي، لا سأم فيه ولا ملل ولا ضجر، هذا المؤمن قد غدا مع الذين أنعم الله عليهم بالفردوس القلبي نزُلاً، لا يبغون عنه حِوَلاً، يرون نوره تعالى، وبنوره يرون عظمته وجماله وبهاه، فهم في (السعادة) الكبرى في دنياهم قبل آخرتهم: {**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**}[٩٢]: جنة في الدنيا وأخرى في الآخرة. تلك هي الحياة الباقية السرمدية التي لا حدَّ لها ولا انتهاء، وما الحياة الدنيا تجاهها إلاَّ طرفة عين أو أقل من ذلك. ألم تسمع ما قاله المؤمن أبو يزيد البسطامي حين قال: «**إن في قلبي نعيماً لو اطَّلع عليه الملوك لقاتلوني عليه بالسيوف**»، أي لو ذاق الملوك بقلوبهم وشاهدوا فيوضات الخالق عليّ بصلاتي به، لصغر ملكهم بعيونهم، وزهدوا به، بل لتخلوا عنه، طالبين السعادة التي نِلتُها بالله ومن الله، كما تخلَّى سحرة فرعون حين اتصلوا بالله، بواسطة سيدنا موسى عليه السلام، فأشاحوا عن ملك فرعون، وضحّوا بالدنيا تجاه ما نالوه من السعادة من الله بإيمانهم بربِّ موسى عليه السلام، وحين هددهم فرعون بالموت وخسارتهم للدنيا قالوا: أمَّا الدنيا فلا قيمة لها تجاه ما نلناه من ربنا، والله خير وأبقى، إنه من يأت ربه مؤمناً فإن له الجنات العلى.

فطوبى لمن آمن وأفلح في دنياه، وفاز بالإيمان نوالاً بتقربه إليه تعالى بالعمل الطيب، فهذا هو الفلاح والفوز المبين، وبه السعادة

---

[٩٢] سورة الرحمن – الآية:٤٦.

الدائمة التي لا تزول أبد الآباد: **{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ}**[٩٣]: إذاً لا فلاح دون إيمان.

أما الذين أعرضوا عن خالقهم وكفروا بربهم، واهتموا بجمع الدرهم والدينار، فليس المال بمؤمِّن لهم ما يتطلبون من السعادة، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم: **{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً..}**[٩٤].

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكـل نعيم لا محالـة زائل

فكل ماعدا الله سراب تظل النفس متمتعة به فترة، ثم يزول وكأنه ما كان، وتبقى آثاره المخزية التي تورث الشر والهم والكدر **(وتكون نتيجة ما جنت يدا الإنسان من سوء عاد عليه بالسوء، والله صاحب الأسماء الحسنى، لا يصدر عنه إلاَّ الإحسان والسعادة للإنسان)**.

فهل تريد أن تهنأ بالعيش الرغيد، وترتع بمراتع الهناء والحبور، أو تبتغي الطمأنينة والراحة التي لا تعب ولا نصب يمازجها، أترنو للضحك البريء الهنيء الطافح النابع من ثنايا ينابيع كل ذرة بجسمك ونفسك، أم تطمح للسعادة الأبدية التي لا تسمح لنغص ولا همٍّ أو غمٍّ أبداً أن يدخلها، وأن تغدو الحياة كلها وبكل أحوالها ووجوهها سعادة وهناء ونعيماً، فوقه نعيم متنوع يتقلب لمسرات أشهى وأحلى وأبهى، محبة يتلوها حب بكل شيء ولكل مخلوق، وكل ما حولك يبعث فيك السرور، وحقاً بقلبك المترع بالنعيم تناله ولن تفقده أبداً؟

أقول: إن كنت تحب نوال هذا كله، فآمن بالله، واعتز أيها الإنسان بربك، في جميع أوقاتك وسكناتك وحركاتك، وكن ملتجئاً إليه طيلة حياتك، إن آمنت بذاتك به، عندها تَذَكَّرْهُ في قيامك وقعودك، محتمياً

---

[٩٣] سورة المؤمنون – الآية:١.

[٩٤] سورة طه – الآية:١٢٤.

به تعالى من جميع الشرور والنغص والأكدار والرهق، مستمداً منه تعالى الحياة الطيبة والسعادة الخالصة الحقَّة، فهو سبحانه خالق كل شيء، ومظهر الأشياء من العدم إلى الوجود، وموجد السعادة في خلقه تعالى لك، وهو الممد بها، فأقبل عليه تعالى، يمنحك إياها مع الغبطة الأبدية، وإن تركته لسواه، فقدتها وغدت الحياة مُرَّة وشقاء بكل وجوهها.

كيف السبيل؟

ولسائل أن يسأل: كيف لي أن أحتمي بالله وألتجئ إليه؟ وكيف السبيل لهذا حتى أصل للسعادة وما يتلوها؟!

الحقيقة ما الحياة الدنيا إلا مدرسة لها ما بعدها.

أرسل الله تعالى الإنسان للدنيا ليعدَّ نفسه فيها، إلى تلك الحياة الآخرة بعد الموت، ومن كبير عنايته تعالى بهذا الإنسان وعظيم رحمته، أن جهزه في هذه الدنيا بجميع ما يلزمه ويساعده على الوصول إلى ما أراد له تعالى من السعادة الكبرى، لذلك خصَّه بتلك الجوهرة الثمينة والجهاز العظيم، وأعني به الفكر، الذي بواسطته يحلِّلُ الإنسان ويركِّب، ويستقرئ ويستنتج، فيعود بنتائج شتى، ويتوصل إلى عقل الحقائق التي هي وراء الصور وكنهها، كما جعل له السمع والبصر وسائر الحواس، خادمة ومعينة لهذا الجهاز في بحثه العلمي، وطلبه الوصول إلى الحق والحقيقة والسعادة، حيث يتوصل إلى عقل حقيقة الوجود الإلٓهي، رب السعادة ومفيضها.

ومن عنايته تعالى بنا أن جعل لنا في هذا الكون لا بل جميع ما في الكون، من أرض وسماء وما فيهن من مخلوقات، حتى الإنسان ذاته وما احتوى جسمه من أجهزة وأعضاء، كل ذلك جعل تعالى فيه من عظيم الدلائل والآيات، ما يساعد الإنسان على بلوغ منازل الإيمان، التي بواسطتها يعتز المرء بربه ويلتجئ إليه، مستعيناً دوماً بذكرى

الموت والمقابر، حيث المصير الحتمي الدنيوي قبل منازل الآخرة. هذا هو الركن الأساسي الذي تتوقف عليه السعادة. فلا سعيد حقاً إلا المؤمن.

السعادة لا يمكن أن ينالها إنسان دون الإيمان بالله، مهما جدَّ وكدَّ، ومهما قدَّم من أعمال.

أما المال الذي يمد الله تعالى به الإنسان في هذه الحياة، وكذلك البنون والأزواج، والجاه والسلطان، والعلم والقوة، والوظائف والمناصب العالية، وجميع ما يتفضل به الله تعالى علينا، ما كل ذلك إلا أسباباً جعلها بين أيدينا وأكرمنا بها، لنتوصل بسببها وبواسطتها إليه تعالى، فنكسب منه صفات الكمال والأخلاق الحسنة، ونستنير بنوره تعالى، فنرى الخير من الشر، وما من أحد يرضى لنفسه الشر، لكنه عمى القلوب يري الإنسان الشر خيراً، فإن غدا الإنسان بصيراً انطلق لفعل الخير وترك الشر، عندها ينطلق إلى فعل المعروف والإحسان لكافة بني الإنسان دون تمييز، بل لكافة الخلائق، فهي نسيج الإلّه الرحيم، وعندئذ نكون أهلاً لأن نأوي إلى كنف الرحيم، ونستغرق في تلك السعادة الكبرى الممتدة من حياتنا الدنيا إلى أبد الآباد، سموّاً وعلوّاً وازدياداً بالسعادة الحقيقية.

فبسعيك واجتهادك في طريق الإيمان بالله العظيم الخالق الكريم لك وللخلق، وأداء ما عليك من واجبات، وإعطاء ذوي الحقوق حقوقهم، عندها تثق نفسك برضاء خالقها عنها، فتقبل عليه، وتلتجئ إليه، لتشتق منه تعالى الضياء والهناء والسعادة. أقول: إن المؤمن الذي نوَّر الله تعالى قلبه بالإيمان، يدرك المراد الإلّهي من خلق هذا الكون، والغاية من إرسال الإنسان إلى هذه الحياة الدنيا، فإذا أنت سلكت الطريق التي شرعها لك ربك، وإذا عرفته تعالى وآمنت به حق الإيمان، وأقبلت عليه و عُذت به، فإنك يقيناً لأنت السعيد السعادة الحقيقية، التي تمازج النفس، وتخالط ذراتها فتسري بها سريان

الكهرباء بالأسلاك، وجريان الماء في الأغصان، وهذه تنالها بالصلاة الحقيقية بالله، وليس أحد من أهل الدنيا بسعيد مثلك، لأنك عالم بما تجنيه كل يوم من الخيرات، ونائل الخير من رب الأرباب كلها. فتتم لك الخيرات ونوال المكرمات، سواء ببذلك المال، أو بمد يد المعونة لذوي الحاجة والاحتياج. نعم إنك إذا آمنت بالله حق الإيمان، فأنت السعيد السعادة الحقَّة، سعيد في دارك وأهلك، سعيد مع زوجتك وأولادك، سعيد في عملك ووظيفتك، سعيد في حياتك ومن بعد مماتك، وتكون قد حزت السعادة ونلتها، فطوبى للأتقياء الأنقياء، الأصفياء السعداء، وألحقنا الله بهم وجعلنا منهم، وأبعدنا عن حب الدنيا وزينتها من أن تكون أكبر همِّنا ومبلغ علمنا. فالسعادة بالله ومن الله. وفي الحديث القدسي: **(ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كلَّ شيء، وإذا فتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء).**

والحمد الله في بدء وفي ختم

§§§§

لـذة العيــش حيــاة في معــان تتجـــدد

لا نراهــا في طــعام   وشــــراب يتعـــدد

لا ولا بالمــال تقتنــى   وشــــباب يتمــــرد

هــذه اللـذات تفنـــى ليس فيها المرء يسعد

فاصحب الله ووثــق   وصلـــة بالله تعقـــد

بادئ العيش سروراً   ونعيمــاً ليــس ينفـــد

وتكــن فيــه ســعيداً   فاتصــل بالله تســـعد

نظـرات . . .

في صحائف العلّامة الإنساني محمّد أمين شيخو

بعد أن أعمت الدسوس النفوس، وحجبت الإسرائيليات الحقيقة، فصُدَّ الناس عن الإلّه العظيم، وأشاحوا عن رسوله الكريم ﷺ، وأصبح الدين أفيون الشعوب، فامتلأت القلوب باليأس وأُتخمت بالقنوط، وخبا بريق الحضارة الزائف، وانكشفت أحلامها الوردية الخادعة، وبات الانتحار سمة العصر...

عادت الشمس الإلّهية لتشرق من جديد، لتعيد إلى الأذهان عصر النبوة الأغر، لتوقظ الفكر من بعد طول سبات، لتعيده إلى سلطانه وسابق مجده بعلوم سماوية على لسان العلاّمة الإنساني الكبير محمد أمين شيخو، فلا مصادر وضعية ولا تقليد أعمى، بل لتفتح له آفاقاً بلا حدود، بنبأ سماوي ينسف الدسوس نسفاً ويحفر للإسرائيليات قبراً أبدياً، فيصفو الدين وتعود إليه النضارة والشباب وليصبح واقعاً عملياً وحلاً جذرياً لكل مشاكل البشرية، كما قال أسقف كانتربري: (لا يمكن الخروج من الأزمة المالية العالمية إلا بتطبيق نظام الزكاة الإسلامي).

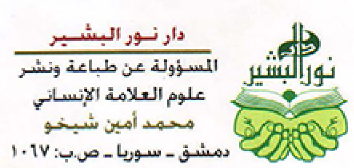
هذا البيان الذي يلوح من آي القرآن العظيم تدرك البشرية من أين وإلى أين، وتتلمس الغاية النبيلة الحبيّة من الوجود، فتسلك سبل السعادة والحياة الآمنة، بلا منغصات ولا دخيلات عفنة جعلت الغربيين يتهكمون ويسخرون.

فتعالى الله عن القسم بما خلق، وتعالى الرسول العظيم ﷺ أن يتدثّر خوفاً وفَرَقاً... وغيرها من البحوث القيمة التي جعلت المفكر الإسلامي الكبير الدكتور مصطفى محمود يقول: (بأنه أصبح طالباً ومريداً في مدرسة العلاَّمة الإنساني محمد أمين شيخو "قدّس سرّه").

وهذا ما لفت انتباهه واستحوذ على تفكيره، فنظر نظراته الرزينة الحكيمة، فوجد أن هذه الحقائق (الكتب والأبحاث الدينية) على غير ما اعتاده من الكُتّاب والفطاحلة من المفكرين والأدباء، إذ لا تعتمد على النقل، بل دستورها واستنباطها من القرآن مهداة لمستنير بنور الله... فهي من تعليم الله لمن أحب من عباده بصدقه وإخلاصه، وهو الذي أراد لهم فهماً صحيحاً وعقلاً مستنيراً قوياً بكتاب الله.

نعم إنها درر نادرة تعكس في وجوهها الفهم الصحيح للإسلام، والحقيقة الناصعة لسمو هذا الدين القيم... فطوبى لمن بها سار وبنورها استنار.

الناشـر



دار نـور البشـير
المسؤولة عن طباعة ونشر
علوم العلامة الإنساني
محمد أمين شيخو
دمشق - سوريا - ص.ب: ١٠٦٧

www.rchss.com
www.thingsnotsaid.org
www.amin-sheikho.com